الدّار

من أجل تنمية الثقافة

بقلم : البشير بن سلامه

منذ ان تاسست هذه المجلة سنة 1955 لم تن تولي الثقافة في تونس وفي غيرها من بلاد العالم العناية الكبيرة الجادة وتواكب ، إن لم نقل تسهم ، في العمل الذي تقوم به دولة الاستقلال لتنمية الثقافة وازدهارها في هذه الربوع.

وقد قامت تونس المستقلة بمجهود كبير موفق في تركيز الهياكل الثقافية وبعث مؤسسات الثقافة بصورة جعلت هذا الوجه الهام الاساسي من التقدم والتطور يثري ما انغرس في هذه البلاد من أسس قديمة للحضارة وياخذ مكانة مرموقة في التنمية الشاملة.

على أننا نبهنا في مناسبات عديدة الى أنه لا يمكن أن يستقيم أمر الثقافة في البلاد على الوجه الذي نريده جميعا إلا اذا هي دخلت الدورة الاقتصادية كعامل من عوامل التنمية تخضع لما تخضع اليه العوامل التنموية الارى ، أي اعتبار الثقافة ـ علاوة على ما احتوته من وظائف فنية وجمالية واجتماعية ومعرفية ـ صناعة ككل الصناعات الاخرى .

وهذه هي بالضبط الخطوة التي خطاها النظام البورقيبي فيما صرح وقام به الاستاذ محمد مزالي الوزير الأول ومدير هذه المجلة في عدة مناسبات إذ قال في مجلس الأمة يوم 30 ماي 1980 ما نصه :

« وفي الميدان الثقافي قام النظام البورقيبي بسعي حثيث لتثقيف الجماهير وذلك باحداث الهياكل المطلوبة . وفي هذا الصدد قامت الحكومة بدور أساسي

فى إشاعة ديمقراطية الثقافة ونشر القيم المتماشية مع اخص خصائص الشعب التونسى المتمسك بأصالته وبمبادىء التفتح على العالم .

وان ما امكن تحقيقه فى هذا المجال ليعد كسبا ثمينا يتعين علينا مواصلة اثرائه وتعميقه . ذلك انه اذا كانت الثقافة تهدف الى ضمان مناعة المجتمع بتعزيز قيمه الحضارية والاخلاقية والروحية وبتمكينه من شق طريق المستقبل ، فان الواجب يدعو الحكومة الى تكثيف جهودها من اجل اقحام العمل الثقافى فى الدورة الاقتصادية اذ ان ربط الاسباب بالمسببات فى هذا الميدان ، أعنى العلاقة الجدلية القائمة بين هذين العاملين الحضاريين لم يعد فى حاجة الى الاثبات . فالعمل الاقتصادى رغم أولويته لا يمكن له أن يضمن الرقى بمفرده .

ان الثقافة ليست عملية خلق جمالية فقط ، انها انتاج ايضا وبهذا الاعتبار تخضع الثقافة الى مقاييس القطاع الاقتصادى ومتطلباته ، ففى ميدان الثقافة يجوز لنا ايضا ان نتحدث عن الاستثمار واحداث مواطن الشغل وتنظيم الهياكل والتسويق ولذلك لا يمكن بحال من الاحوال ان يبقى الانتاج الثقافى نشاطا هامشيا أو طفيليا .

ان صناعة الكتاب والسينما والموسيقى ، وكذلك الفنون التشكيلية والمسرح والمعمار وغيرها من النشاطات الفنية تقتضى منا ، على غرار ما قامت به الدولة فى الميادين الصناعية الجديدة على مجتمعنا ، ان نوجد لها التشريع الملائم لازدهارها .

ولا يتعلق الامر بالنسبة الينا (بتوظيف) الثقافة وتحميل ميزانية الدولة وحدها العبء كله ، بل اننا سنعمل بما نتخذه من قرارات ، على ان نحسس المستثمرين ورجال الاعمال وعلى ان ندفعهم الى اقتحام الميدان الثقافى للنهوض به ولتنشيطه بتشجيع الدولة وارشادها .

كما ان الامر لا يتعلق (بتصنيع) الثقافة وتعليبها بل اننا سنعمل على ان يجد المنتج الثقافى الظروف المواتية للخلق الفنى فى حرية تامة وبمعزل عن الضغوط المستلبة التى ربما تؤدى به الى الزيف والتنكر لقيمه الحضارية .

وبهذا نكون قد وفرنا للثقافة محتوى يغذى هياكل التنشيط الثقافى ويمكن من اقرار تعاون ثقافى متوازن مع كافة البلدان . وفى هذا الصدد يجب تدعيم تمثيلنا الثقافى فى الخارج خاصة عن طريق ملحقين ثقافيين أكفاء يستطيعون ابلاغ أصوات المبدعين من كتابنا ومفكرينا وذوى المواهب من فنانينا » .

وقد كرر ذلك الاستاذ محمد مزالى عند إشرافه على المجلس القومى للنشر (راجع ملخص الكلمة فى الأصداء من « الفكر » السنة 26 ، العدد 3 ، ديسمبر 1980 ص 115) وأعاد الحديث عنها أمام مجلس الأمة فى بيانه الذى قدم به ميزانية الدولة لسنة 1981 . وهى نفس الأفكار والآراء التى لم يفتأ يشرحها ويعمقها منذ أن كان أستاذا ثم وزيرا فوزيرا أول .

ولم يكتف الاستاذ محمد مزالى بالقول بل قرنه بالفعل كما هو شأنه دائما لأنه رجل علم وعمل ونضال إذ اتخذت الحكومة أخيرا اجراءات ثورية فى ميدانين هامين من ميادين الثقافة الا وهما السينما وصناعة الكتاب وترويجه.

ففى قطاع السينما اتخذت الحكومة اجراءات عملية كفيلة بازدهار كل فروعه إذ :

1) أوقفت العمل بالأداء على القاعات لمدة خمس سنوات ابتداء من غرة جانفى 1981 . وكان هذا الأداء تستخلصه البلديات ويثقل كاهل المتصرفين فى قاعات السينما .

2) أبطلت الأداء الراجع الى صندوق تعصير قاعات السينما إذ أن اغلب القاعات لا تحتاج الى ذلك والبلديات ووزارة الشؤون الثقافية ساهرة على تحقيق هذا الغرض .

3) بعثت صندوقا لتنمية صناعة السينما وإنتاجها ، وموارده متأتية من :

6 % تؤخذ من المداخيل الخام للقاعات .

— ⅓ ما يرجع من مداخيل الى الموزع وذلك للقيام بصنع الأفلام الوثائقية التونسية المعروضة فى القاعات قبل الأفلام الطويلة وهذا المقدار يمكن أن يصل الى مبلغ يساوى : 670.000 دينار .

4) قررت منح امتيازات لمؤسسي قاعات السينما وذلك باعفائهم من الأداء المستعمل للاستثمار في هذا الباب ومن الأداء على الباتيندة مدة خمس سنوات.

5) صنفت القاعات الى أصناف وصححت تذكرة الدخول .

6) أبطلت امتياز الشركة التونسية للتنمية السنمائية والانتاج المتمثل في التوريد والتصدير وتمكين مؤسسات أخرى من ذلك مع إحداث لجنة قومية للتحرى في قيمة الأفلام المستوردة .

وهكذا فان هذه الاجراءات من شانها أن تضاعف من رقم المعاملات وتدفع رؤوس الأموال الخاصة الى بعث قاعات جديدة لها مردود مضمون وصنع 3 أو 4 أفلام طويلة في السنة وما يناهز الثلاثين فيلما وثائقيا أو ثقافيا أو خاصا بالاطفال .

ومع ما تقرر من تطهير للمؤسسة السينمائية الحكومية فان قطاع السينما سيصبح قائما بذاته يرتكز على اسس ثابتة مندمجا في الدورة الاقتصادية للبلاد ذا مردود بعد أن كان هامشيا خاسرا أى أنه سيصبح بحق عاملا من عوامل التنمية ومصدر إشعاع ثقافي في الداخل والخارج وخاصة مع العالم العربي والافريقي .

وبالطبع فان هذه الاجراءات ستتبعها القرارات الادارية العملية التى تجعلها تدخل حيز العمل بسرعة غير أن هذا ليس من شانه أن يقفز وحده بقطاع السينما إذا لم يشمر المعنيون بالأمر على ساعد الجد وينبذوا من صفوفهم العجزة المجدبين الذين أصابهم الله بالجدل وحرمهم من نعمة الخلق والعمل وبذر فيهم بذرة الدغماتية والدماغوجية وحبب إليهم الكلاتية totalitarisme نسأل الله أن يشفيهم من ذلك فيقنعوا بالتفرج على الأفلام بعد ان عجزوا عن صنعها .

أما في ميدان صناعة الكتاب فان أكبر إجراء تم هو ما قررته الحكومة من دعم للكتاب في نطاق الورق الثقافي عن طريق صندوق التعويض بحيث ينقص من تكاليف الطبع ما يفوق 16 بالمائة وكذلك تطبيق الامر عدد 492 لسنة 1978 المتعلق بتوقيف استخلاص المعاليم القمرقية والمعلوم على الانتاج بالنسبة الى المواد الداخلة في صناعة الكتاب .

كما أن الرأى متجه الى تمويل عمليات النشر ومشاريعه عن طريق البنوك فى شكل قروض ذات مدى قصير ومتوسط وادراج صناعة الكتاب ضمن الصناعات ذات الأولوية فى التمويل البنكى بضمان من البنك المركزى.

وأهم إجراء فى طريق الانجاز هو دعم الدولة لتصدير الكتاب التونسى بتحمل نفقات نقله الى مختلف الأقطار العربية وكذلك تشجيع الدولة لعمليات الاشهار .

واذا كان دعم الورق أوجدت له الدولة المبالغ الضرورية عن طريق صندوق التعويض (400.000 دينار تونسى) فان ما يتعلق بالنقل والاشهار لم يتم بعد البحث فى موارده . ويمكن فى هذا الباب أن نقترح اقتراحا لعله يفى بالحاجة ويدفع الى التشجيع على عنصر اتفق الجميع على أنه غير شائع في بلادنا بالقدر الذى نريده ألا وهو المطالعة . فلو أن الدولة تحدث صندوقا للتشجيع على المطالعة وتأخذ موارده من أداء طفيف يوظف على أرباح الشركات والمؤسسات ذات الصبغة الصناعية والسياحية والفلاحية الصناعية ويرجع جزء من هذا الأداء الى هذه المؤسسات بعد الادلاء بما يثبت أنها اشترت كميات من الكتب والجرائد والمجلات والصحف لفائدة عملتها وأعوانها والجزء الآخر من الأداء تسدد به الدولة نفقات النقل والاشهار وتكاليف كل من يبعث مكتبة ويجهزها فى أية رقعة من الجمهورية .

هذه إذن إجراءات هامة ستطور صناعة الكتاب فى تونس وتدخله أيضا فى الدورة الاقتصادية للبلاد وهى تقتضى بالطبع إيجاد الصيغ الملائمة حتى ينتفع منها الكاتب والناشر والطابع والموزع والقارىء .

وهكذا يمكن القول : إننا نعول كثيرا على هذه الحكومة لتقفز بالثقافة القفزة المرجوة وتدفع الادارة على أن تساير هذا العزم وهى سائرة فى هذه السبيل السير الجاد كما أننا نعتقد انه بدون حماس رجال الثقافة أنفسهم وتفانيهم وجدهم وإخلاصهم لا يمكن أن نصل الى ما نصبو اليه فى هذا القطاع .

البشير بن سلامة

الوفاء للقيم .. للأمّة .. للانسان

بقلم : محمّد مزالي

تحت هذا العنوان نشرت مجلة الاذاعة فى عددها 475 س 21 نوفمبر 1980 اللقاء الاذاعى الذى أجراه الزميل صالح جغام وأذاعه فى حصة « يوم سعيد » بمناسبة الاحتفال بمرور 25 سنة على صدور أول عدد من مجلة « الفكر » ونقله الى المجلة بعد أن وضع له المقدمة التالية :

منذ أكثر من عامين ... وأثناء إقامة مهرجان المربد الأدبى بالعراق حيث حضرته كاذاعى يرافق الوفد الأدبى التونسى المتركب من الأديبين : أحمد اللغماني ، ومحيى الدين خريف ... فتحت المذياع لأسمع بالصدفة برنامجا من اذاعة بغداد يتحدث عن شاعرنا الكبير أبى القاسم الشابى ... ولفتت نظرى فى ذلك الوقت جملة وردت فى تقييم الشابى تقول : ان معجزة الشابى الحقيقية تكمن فى انه استطاع الانطلاق الى خارج الحدود التونسية قبل أن تولد مجلة « الفكر » ...

هذه الجملة على قصرها وبساطتها والواردة على لسان ناقد غير تونسى (لا يطمع فى شىء لا من الفكر ولا من صاحبها) تحوصل بتعمق عجيب وكبير الدور الذى لعبته مجلة « الفكر » فى حياتنا الأدبية وفى الاشعاع الفكرى الذى حققته طوال ربع قرن ... وفى احتضانها وابرازها لعشرات ومئات الأقلام التونسية المعروفة الآن حتى بدا – انه من العجب ان يبرز الشابى – دون ان يكون لك من على صفحاتها .

واعتقد انه بالرغم مما قيل عن مجلة « الفكر » فى احتفالها الاخير ، فان قيمتها الحقيقية لا يمكن ان تقيم الا بعد مرور وقت طويل من الزمن ... وذلك عندما يكتب تاريخ الادب التونسى المعاصر ... فهذه المجلة – على كثرة ما لدينا

من المجلات والصحف والاوراق الدورية واليومية . تبقى المنبر الوحيد الاكثر نقاء ورصانة وصمودا ونضالا ... فرأيي ثابت دوما فى كون ان لدينا ما شاء الله من الصحف والمجلات التى تعيش نشر الفضائح الاخلاقية واستغلال عواطف الجماهير وغرائزها ... أو اللعب على وتر الثورية والتظاهر بالمثالية وخدمة القضايا السياسية النضالية ... وكذلك بتحقيق المكاسب المادية المهولة عن طريق سيل الاعلانات التجارية .

ومجلة « الفكر ـ على طوال السنوات التى عاشتها لم تدخل فى هذه اللعبة ... بل بقيت عفة نظيفة مناضلة ... قوتها من قوة مؤسسها ... اخلاقها من اخلاقه ... نضالها مستوحى من المبادىء التى تربى عليها راعيها ورفيق دربها... فهى صورة منه اليه صورة لكفاحه فى حياته كطالب... وكمواطن... وكمناضل... وباختصار...

لقد نجح مزالى مرتين :

مرة عندما بنى نفسه كانسان ، وكمناضل ومرة عندما بنى هذه المجلة .

ولعلها فرصة للتذكير بأن الرجل الذى بنى صرح مجلة « الفكر » ساهم بقلب كبير فى بناء صرح مؤسسة الاذاعة والتلفزة كجهاز اعلامى وثقافى كبير تفخر به تونس فى نهضتها اليوم .

وهذا هو نص الحديث الهاتفى الذى أدلى به مشكورا الاستاذ المفكر محمد مزالى لبرنامج « يوم سعيد » ...

وهذا الحديث الذى أجريته لصاحب ملحمة الفكر عن طريق الهاتف فى نطاق برنامج « يوم سعيد » صباح يوم احتفال تكريم الفكر هو جزء من مساهمة أسرة الاذاعة كجهاز ثقافى فى تقديم تحية اكبار ووفاء لهذه المجلة ولصاحبها وبقية أسرتها ... خصوصا وأن هذه المجلة قدمت الثقافة بدون غرور وصفحاتها لم تتعال على أحد بما فيها الاذاعة كجهاز ثقافى ...

مغامرة الفكر هى فرع متواضع من الروح الوطنية البورقيبية

... وكان السؤال الاول :

صمودكم ، عبر النفس الطويل فى اصدار مجلة « الفكر » والانطلاق بها فى ظروف صعبة ، والاشراف عليها باستمرار ، والكتابة المتواصلة فيها طوال خمس

وعشرين سنة بالرغم من مهامكم الكثيرة الاخرى ... وهو ما يمثل تجربة رائدة ومبادرة فكرية فريدة ...

وهذا يوحي الى بسؤال مزدوج ...

أولا : كيف استطاعت « الفكر » ان تعمر خمسا وعشرين سنة كاملة ؟

ثانيا : لماذا لم يشهد الوسط الادبي والثقافي في تونس حتى الآن تجربة صامدة اخرى تكون سندا لتجربة مجلة « الفكر » ولمؤسس مجلة « الفكر » ..؟

وأجاب صاحب « الفكر » :

شكرا على اهتمامكم ،

هذا السؤال أجيب عنه بكل بساطة فاقول : إن طول نفس مجلة « الفكر » وصمود أسرتها ونتائجها المرضية بصفة عامة ... كان نتيجة للمقصد الأول من تأسيسها وهو اظهار ان التونسيين لهم نفس طويل وان المشاريع في تونس يمكن ان تستمر اذا ما صح العزم لأي قبل تأسيس « الفكر » طالعت مقالات وابحاثا عن تاريخ المجلات التونسية منذ عام 1881 الى 1955 ... فاصطدمت وتألمت من كثرتها وقصر عمرها في آن واحد ... فقلت في نفسي : لماذا تظهر مجلات ثم تختفي بهذه السرعة والسهولة .

وعندما تحدثت مع أدباء من جيلي ، وأدباء من أجيال سابقة تبينت ان معظمهم يائس من وجود مجلة يمكن ان تعمر طويلا ... فقلت في نفسي : سأسعى الى بعث المجلة وسأعطيها من نفسي ومن وقتي ومن مهجتي بحيث ستعمر وسترجع ثقة التونسيين حتى يؤمنوا بانه اذا صح العزم استجاب القدر ... واستجاب الواقع الى عزيمة الانسان عندما يختار وعندما يضحي في سبيل اختياره ... وهذه الروح مستمدة من الروح الوطنية وهي جزء منها . وهي الروح البورقيبية لأنه في الميدان السياسي وجد زعماء كثيرون قبل الرئيس الحبيب بورقيبة وحتى معه ... وبدأوا الكفاح بطرقهم الخاصة ثم سرعان ما أخذهم التعب والكلل وتعللوا بتعلات كثيرة لانهاء الكفاح ... لكن الرئيس الحبيب بورقيبة صمد حتى في احلك الظروف فاستجاب القدر .

فمغامرة الفكر وملحمتها هي جزء بسيط وفرع متواضع من فلسفة قـومية خلقها الرئيس الحبيب بورقيبة وبعثها فينا وربانا عليها .

هذا هو بصورة عامة السبب الأول الذى يفسر لا فقط طول عمر المجلة بل كذلك انتظام صدورها ... لأنه طيلة هذه الأعوام لم تصدر « الفكر » ولو مرة واحدة متأخرة عن موعدها وهو أول كل شهر ، بحيث توفر فيها دوام الـزمن وانتظام البروز ...

مواقفى ثابتة ... ولا تتغير فيها الا وسائل التطبيق

أستاذ محمد مزالى ...

منذ سبع سنوات بالضبط ، قلتم :

ان مواقفى من بعض القضايا ما زالـت هى مواقفى ، منذ ان كنـت طالبـا ... فأستـاذا ... الى ان تحملـت مسؤوليات فى الدولة .

هل هذا هو رأيكم كذلك ... وانتم فى منصب الوزير الاول ؟ وأجاب :

طبعـا ...

طبعا ... لأن المواقف هى الآراء العامة ، وهى القيم السامية وهى سلم القيم الذى أنتسب اليه وأخلص له ... ولكن تبقى دائما كيفيـة وضـع هذه القيم موضع التنفيذ والسير بها شيئا فشيئا الى حيز الواقع وهـذا يكـون بحسب الظروف والامكانيات الجديدة والوسائـل العلميـة والتكنولوجية ، والوسائل السمعية والبصرية ، ومستوى تطور البشر ...

كل هذه عوامل تكيف سياسة التطبيق والتنفيذ ... ولكن القيم الـوطنية والانسانية ونظرتنا للانسان والتضامن بين البشـر ، والبعـد الانسانى فى علاقاتنا البشرية ، وكون تونس وطنا واجب الاستقلال والصمود والصيانة ، والحياة من أجل الغير ، والتعاون ، ونبذ حرب الطبقات ، واعتبار ان التونسيين اخوة ، والتعـاون مع الغيـر على أسـاس الكـرامة ، والعمـل من اجل الادب التونسى ، والدفاع عن مقومات الثقافة التونسية التى هى عربية اسلامية وفى نفس الوقت متوسطية ومتفتحة ...

كل هذه ... هى القيم التى تغذينا بها فى حزبنا ولا نزال مخلصين لها ... ويبقى تنفيذها فى جميع الميادين مرتبطا بالظروف وقد يتكيف ويتطور .

« الفكر » تعبر عن فكر كل من يكتب فيها

أستاذى الكريم ...

بعد تجربة الفكر الرائدة فى طرح القضايا والمواقف ...

مجلة « الفكر » فى النهاية ...

هل تعبر عن فكر مؤسسها ؟

أم عن فكر كل من يكتب فيها ؟

أجاب صاحب « الفكر » :

هى تعبر معا عن الفكرين ان صح التعبير ...

تعبر عن فكر مؤسسها ورئيس تحريرها ـ الأخ العزيز البشير بن سلامة ـ باعتبارنا ننتمى الى مدرسة وطنية واحدة ... وقد عبرنا عن افكارنا واختياراتنا فى افتتاحياتنا ومقالاتنا وفى استجواباتنا مثل هذا الذى أجريه الآن ...

وهى من جهة اخرى تحمل أفكار كل من يساهم فيها ، فالفكر ـ ونحن معها ـ تحترم افكار الغير واساليبه ... وتقنياته من الناحية الفنية والادبية..

وهكذا يمكن أن أقول بانه من حيث الاختيارات العامة نحن حريصون على ان تبقى الفكر متماشية معها .. ولكن هذا لا يمنع من أن يقع أحيانا تضارب بين أفكارنا الشخصية وبين أفكار بعض الاخوان ... واذا حصل ذلك فنحن نتحاور معهم وننشر لهم بعض الشيء ... ولكن فى نفس الوقت نحن نحترز ازاءه...

وبصورة عامة اذا كان الأثر المقدم الينا أدبيا باتم معنى الكلمة وتوفرت فيه شروط الخلق الفنى والروعة الأدبية . فاننا نحترمه وننشره وذلك لايماننا باحتكاك الآراء والاساليب وبان كل أسلوب فكرى من شأنه أن يغذى الثقافة التونسية والأدب التونسى ...

ولهذا ... فنحن نعتبر ان حرية النشر فى مجلـة « الفكـر » ـ انطلاقا من مستوى أدبى طبعا ـ هو عندنا شىء مقدس ...

شجعـت على نشـر تجـارب الشبـاب بالـرغـم مـن تحفظـاتى نحـو بعضهـا

أستاذنا الكريم ...

لقد أعطت مجلـة « الفكـر » على امتـداد السنوات فرصة لمحاولات مختلـف التيـارات الفكـرية الشبابية سواء من ناحية الشكل أو من ناحية المضمون ...

هل انتـم ـ فى النهـاية ـ مقتنعون بكل المحاولات التجديدية التى نشرتها « الفكـر » ... أم لديكم بعض التحفظات فى شأنها ..؟

وأجاب المفكر محمد مزالى :

لقد نشرنا بالفعل الكثير من المحاولات الشبابية واعتـرف شخصيا بأنى لم أكن موافقا على بعض هذه المحاولات ، ولم أكن متحمسا بالخصوص مع شكـل هذه التجارب ... ولكن مع ذلك شجعت على نشرها باعتبار أن هذا النشر قد يشجع هؤلاء الأدباء الشبان وهم فى مقتبل العمـر وأولى تجاربهم ... وذلـك للصمود والتطور فى أساليبهم وتفكيرهم وتأملاتهم ...

وهكذا فان تشجيعى لهؤلاء هو قبل كل شىء اعتبار لمستقبل هؤلاء الشبان... ولكنى مع ذلك لم أكن راضيا دائما على ما نشرناه ... فى وقت نشره طبعا ...

« الفكـر » ... هى مجلـة المغـرب العـربى

أستاذى محمد مزالى :

لقد نشرتم فى مختلف مراحل حياة « الفكر » اعدادا خاصة بأدب المغرب العربى ... وفسحتم المجال واسعـا لكتاب من الجزائر والمغرب وموريتانيا ... وعلى سبيل المثال نشرتم كثيرا للأديب الجزائرى طاهر وطار ...

هل تطمحـون فى أن تكـون ـ الفكـر ـ على هـذا الاساس ، مجلة أدب المغرب العربى ..؟

وكان جواب الاستاذ محمد مزالى ما يلى :

لقد نشرنا بالفعل الكثير من الاعداد حول أدب المغرب والجزائر وموريتانيا ولعل المستمعين يعرفون ان مجلة « الفكر » واكبت الثورة الجزائرية المباركة... ونشرت للكثير من الاخوان الجزائريين حتى للذين كانوا حينذاك فى السجون مثل الأخ مصطفى الأشرف ، الذى كان فى سجون فـرنسا وكان يبعث الينـا بطرق عجيبة الكثير من مقالاته وابحاثه اما بالفرنسية حيث كنـا ننقلهـا الى العربية أو بالعربية أصلا .

ونشرنا كذلك للاخوان وطار وحوحو والأخضر السايحى ، ومحمد الميـلى والمرحوم مفدى زكرياء ... ولا بد أن أشير الى ان عدد الجزائريين الذين نشرت لهم مجلة « الفكر » كثير جدا ... وكنا دائما الى جانب الثـورة الجـزائرية من خلال افتتاحياتنا ومواقفنا ... وهو ما كنا نعتبره بالطبع واجبا علينا ...

وبالنسبة للمغرب هناك من الأدباء من نعتبرهم من أسرة المجلة ... وانطلاقا من هذا الذى أشرت ، فاننا نعتبر بالفعل ان مجلة « الفكر » هى مجلة المغرب العربى الكبير ...

صحيح ان هذا المغرب له حدود وبينه فوارق ومتناقضات موروثة أوجدناها نحن بأنفسنا بكل أسف ... ولكنهـا فى اعتقـادى وقتيـة ... اما من حيث الثقافة والأدب والفكر فهناك جذع مشترك يجمع بيننا وعلينا نحـن الأدبـاء والمفكرين ان ننميه ونعمق فيه رؤيتنا حتى نخدمه ونبلغـه ونغـذى أجيـالنا الصاعدة به ...

لـم نشعـر فى وقـت من الأوقـات ان مـواقف « الفكـر » حكـم عليهـا التـاريخ

أستاذنا ، صاحب « الفكر » :

من مميزات مجلـة « الفكـر » طرحهـا للعديـد من القضايا الفكرية والاجتماعية والشبابية وغيرها ...

هل أكد مرور الزمن والظروف والاحداث صحة وجهة نظر « الفكر » فى هذه القضايا ..؟

وكان جواب الاستاذ محمد مزالى :

نعـم .

عندما أجول بخاطرى فى هذه القضايا ، وأحاول احيانا أن استعرض الآراء التى عبرت عنها « الفكـر » منذ ربع قرن حول مختلف القضايـا فانى بصفة عامة أجد أن اتجاهنا هو الاتجاه الصحيح وهو الذى أكدته الأيام ...

ونحن لم نشعر فى وقت من الاوقات ان مواقفنا حكـم عليهـا التاريـخ أو كذبتها الاحداث ، وأقول هذا بكل تواضع ...

أطـالب النقـد بأن يقـوم بالـدعم النفسى والبسكلـوجـى

وسألت أستاذنا :

فى حفـل تكـريم الكتـاب الذين صدرت لهم كتب ومؤلفات فى النصف الثانى من سنة 1974 ، وكان ذلك يوم السبت 11 جانفى 1975 ، قلتم عن موضوع النقد :

لا يمكن للأدب أبا كان أن يقف على قدميه بدون نقد موضوعى حقيقى ، ونحن فى حاجة الى نزعة الدعم أكثر من وساوس التنقيب ، ولا بد أن يكون عمليا حتى يلعب دور التصدى والتشجيع ، حيث ان الأديب فى حـاجة الى من يشجعه لأنه سريع الانكسار ...

أليس هذا الرأى ، بالنسبة لما يكتب اليوم فى حاجة الى تذكير وتأكيد وتثبيت ..؟

أجاب الاستاذ محمد مزالى عن هذا السؤال :

أولا من حيث النقد بصفة عامة ، فانه ضـرورى من أجـل تنشيط الحيـاة الأدبية ، لأن الأديب عندما يكتب ولا يجد الناقد اللامع الحصيف الذى يقيم له انتاجه ويلفت نظره الى بعض الجوانب والنـواحى التى قد تكون غـابت عنه ، فانه يبقى معزولا ولا يستطيع أن يتقدم ... وهكذا فان وظيفـة النقد وظيفـة حيوية فى تطوير الأدب وهذا ما نلاحظه فى الدول المتقدمة بصفـة عـامة ...

وعندما نستعرض مختلف النهضات الأدبية في فترات مختلفة عند الشعوب المتقدمة والشعوب الاسلامية في أيام عزها نجد أن النقد كان نشيطا ...

ولكن بالنسبة للموضوع الذى أشرت اليه وذكرتني به فاني أكدت على ضرورة دعم الأدب التونسي ، لأن هذا الأخير لا يزال مبتدئا بصفة عامة وتنقصه الامكانيات المادية والمناخ الملائم بصفة عامة ... ولهذا فانا أدعو دائما الى ضرورة الأخذ بيده ... ولا باطرائه اطراء مطلقا بل بتمكينه في ان يقف على نواحيه الايجابية ... وكذلك على نواحيه السلبية .

والدعم الذى اطالب به خصوصا ، هو الدعم النفسي ، الدعم البسكلوجي ، وذلك بعدم تلقي انتاجه بالازدراء ، واللامبالاة والتجاهل... فالتشجيع المعنوى لا بد منه ، وأنا شخصيا عندما كان لي مجال من الوقت كنت أقبل اى مخطوط يطلب مني صاحبه أن أقدم له ، واحيانا قدمت لكتب لا أعرف أصحابها معرفة شخصية أو معرفة تامة ، وانما كنت أقول في نفسي بأن المقدمة عندما يكتبها مواطن معروف مسؤول قد تاخذ بيد هذا الكاتب ، وبالخصوص قد تعينه على أن يجد الناشر والموزع ... الى آخره ...

وما أريد أن أؤكد عليه أن هذا النوع من الدعم هو دعم منهاجي ... في فترة انتقالية من حياتنا الادبية وليس معنى هذا انه يجب أن نقول لكل اديب ضعيف أو تنقصه الصفات الأدبية الضرورية : انه أديب لامع بل إن الذى أقصده هو بالخصوص الدعم البسكلوجي .

هذا ما لا أزال أؤمن به وأقيم عليه الحجة والدليل بما ننشره في « الفكر » من محاولات لأدباء شبان والذى ارتاح اليه واعتز به اليوم هو أن العشرات من الأدباء المعروفين اليوم ، كانوا في فترة معينة شبانا مبتدئين متحسسين طريقهم فاخذنا بأيديهم ونشرنا لهم ، وشجعناهم وهم اليوم معروفون على الساحة الأدبية ، وربما ابتعد عنا بعضهم باعتبار أنه أصبح لا يحتاج الى مساعدة الفكر وهو ما نعتز به كما يعتز الأب عندما يرى أن ابنه ترشد واستقل اقتصاديا وأصبح مواطنا يعتمد على نفسه...ونعتني بغيره من الشبان الآخرين الذين تجود بهم تونس في كل حقبه ..

نعتز بانطلاق بعض أدبائنا من الفكر
كما يعتز الأب بابنه

وعن العطاء الأدبي في بلادنا ... كان سؤالنا :

البعض يعتبر ان هناك فتورا او شحا فى العطاء والخلق الأدبى ، والبعض الآخر يرى أن الخلق الأدبى فى تونس يعيش الآن مرحلة مزدهرة .

من خلال :تعامل الفكر مع العطاء الأدبى ؟ ما هو تقييمكم لهذا الموضوع ؟

وأجاب أستاذنا :

شخصيا ، اعتبر انه من عام 1955 بقى انتاجنا الأدبى فى حجمه كما هو ، ولكن هناك من كتابنا من ياخذهم بعض الكلل أو التعب بعد نشر انتاجهم فيقللون من عطائهم . والبعض الآخر يشترط شروطا مالية على تلك المجلة أو ذلك الناشر وهو ما يصعب اجمالا تحقيقه ...

ولكن بالمقابل اعتبر ان انتاج شبابنا فى تطور مستمر وتزايد ، وهو ما الاحظه دوما من خلال ما يرد على مجلة « الفكر » من انتاج الشباب ، فمشكلته دوما هى ماسانشر وما سأترك فى كل عدد ... وفى كل شهر ...

لقد كنت فى السنوات الأولى من عمر « الفكر » احتاج الى المقالات والكتابات وهو ما اضطرنى الى ان أكتب وأترجم كثيرا بنفسى..حتى يشتد عود المجلة... ولكن مشكلة « الفكر » الآن ليست هى القلة وانما الكثرة ... بحيث ان الانتاج المتوفر كثير وغزير ... ولهذا فيجب ان نكون متفائلين بمستقبل الأدب فى هذه الديار بحول الله ...

الثورية ليست أبدا ثورية الثوريين ...
وانما الفكر المتطور

وسألنا مفكرنا :

بعد صدور كتابكم (مواقف) قال الاستاذ محمد فنطر : ان اغراض كتابكم وكتاباتكم كثيرة ومتعددة... ولكنها فى النهاية مترابطة فهى تعالج ...

الشباب ...

الوحدة ...

التونسة ...

الثورية ...

والأصالـة ...

هل توافقون على هذا الرأى ؟

وكان الجواب :

أولا ، الوحدة المقصودة هى الوحدة القومية .

والثورية ليست ثورية الثوريين ... فالثورية التى أقصدها هى التجديد بجعل الفكر يتعرف الى الجديد ... ويفتح آفاقا جديدة ... وجعل الفكر يترك العادات والأفكار المسبقة التى ترد عليه وتحجره ... لأن كلمة الثورية ـ من سوء الحظ ـ فقدت معناها لكثرة استعمالها ... لقد أصبحت عند البعض تعنى السلبية والهيجان ... وهو ما لم يكن أبدا من أفكارى ... فالفكر الثائر هو الذى يتمرد على الواقع ويريد دائما أن يحسنه لأن الكثير من الناس تتحجر أفكارهم ، وتستبد بهم العادات ... فالفكر الثائر هو الفكر المجدد المتجدد الذى يضع نفسه دائما موضع الشك وموضع النقد والتقييم ... ويجعل دائما حياته ـ كما قلت ذلك فى مرات كثيرة ـ جدلا حيا بين المبادىء والقيم والاختيارات من جهة وبين واقع صعب عنود متغير ... فالمفكر أو المواطن أو المناضل يحاول دائما أن يسيطر على هذا الواقع ولكنه لا يغض الطرف ولا يهمل نواميس الواقع ...

فاذا تمكن المفكر من هذا الجدل الايجابى الحى ، يستطيع مع احترام نواميس الواقع أن يغير هذا الواقع ... فيضع اختياراته ومبادئه وقيمه موضع التسيير مع مواطنيه لانه لا يمكن لعمل أن ينجح اذا لم يكن جماعيا مشتركا ...

* * *

وكان السؤال الأخير الموجه لصاحب « الفكر » فى عيد « الفكر » :

اذا كان لا بد لمجلة « الفكر » أن نجعل لنفسها شعارا ... فما هو ؟

ومن وحى نضال « الفكر » وتجربتها ومعاملتها الطويلة أجاب محقق ملحمتها :

الوفاء ...

الوفاء للقيم ... للأمة ... للانسان ...

وشوشة الموج

شعر: أحمد المختار الوزير

عانقيني، يا موجة البحر، إني
مستهام طغت عليه شجونه

عانقيني، يا خفقة النور إني
لمحبٌّ هفت إليك عيونه

عانقيني في رأفة، إن قلبي
بين عطفيك أمنه وسكونه

ودعيني أضم صدرك ضماً،
أنا طفل قد هاج توقاً حنينه

ثم هاتي ما شئت من وشوشات
هي من غيب سرنا مكنونه

هي شعر موقع، هي إلها
م سني إيقاعه وحنونه

من قصائد الأعداد القادمة

فليشرب الجمل الذى منح الحياة ..	**علالة القنونى**
أى شكل لك الآن ؟	**محمد رضا جلالى**
آيات من سورة البعث	**محمد على الهانى**
جراح فلسطين	**حلمى الزواتى**
أمة فى الساعة ـ التنفيذ	**أبو وجدان**

الثورة في الشعر التونسي المعاصر

بقلم : عبدالعزيز قاسم

اذا كانت الثورة هي التغيير الجذري الطارىء على الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على غرار ما حصل في فرنسا سنة 1789 وفي روسيا سنة 1917 ، واذا كان الشعر المعبر عن ذلك التغيير هو الممهد أو المواكب والدافع له على صعيد الفكر والرؤية ، صادرا في كل ذلك عن ايديولوجية ما فانه يتعين علينا استعمال لفظة « ثورة » ومشتقاتها بشيء من الاحتراز ، وخاصة فيما يتعلق بالعهد السابق للاستقلال . وهذا الاحتراز ضروري في القيام باية دراسة عن الشعر العربي عموما . ذلك ان محتوى كلمة « ثورة » في شعرنا كان الى عهد غير بعيد أقرب الى مفهوم كلمة Révolte تمرد منه الى مفهوم كلمة Révolution التي يقتضي استيعابها ثقافة عصرية شاملة وممارسة فعلية للنقد الاجتماعي والثقافي وهو ما لم يتوفر لشعرائنا من اجيال ما قبل الاستقلال .

ثم ان الثورة بمعنى التمرد والعصيان والمقاومة وارادة التحرر وما تقتضيه من حماس وحمية ، لم تمارس في الشعر ضد الحكم الفاسد المسؤول عما تتخبط فيه الامة من جهل وفقر ، وظلم ، بل كان خروج الشعر العربي من الخصوصيات الضيقة والقوالب الموروثة الى الشمول والوعي مرتبطا اساسا بظاهرة الاستعمار .

ولم تكن الامة العربية في البداية تعي بما فيه الكفاية ما يمثله الاستعمار من خطر على روحها وتراثها وقيمها وخصائصها وانما كان المستعمر قبل كل شيء هو العنصر الدخيل على جسمها وانه لمن الطبيعي ان يولد فيها ظاهرة رفض

(*) بحث شارك به المؤلف في ملتقى « الثورة في الفكر العربي المعاصر » الذي نظمه مركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية في ديسمبر 1978

فيزولوجية ان صح هذا التعبير . ولقد كان الشعر لسان ذلك الرفض ينشط المقاومة ويقيها انكماش الخوف وخدر التعود .

وعلى كل فان الشعر الحقيقى ليس فى نظرنا ما استجاب لقواعد الثورة كما قننها المنظرون والساسة ، وانما هو شعر الاستفزاز والتحدى لكل ما هو ليس بشعر ، أى لكل ما هو مخالف للقيم التى يتضمنها مفهوم الشعر .

ولئن حددنا بحثنا هذا بالفترة الممتدة من سنة 1920 الى السبعينات فانه من باب الانصاف ان نشير الى ان اول شاعر تونسى عالج القضية الوطنية فى شعره هو محمود قابادو المولود سنة 1812 والمتوفى سنة 1871 أى قبل انتصاب الحماية الفرنسية بتونس بعشر سنوات . ومعلوم ان الشاعر الواعى يتحسس الاحداث ويتوقع ما تخبئه الاقدار . ولقد كان يحس محمود قبادو بالخطر المتمثل فى تواجد القوى الاستعمارية الفرنسية بالجزائر ، فحذر الطامعين الذين كانوا يتربصون بتونس فى أبيات قد تدعو الى الابتسام اليوم ولكنها تنم عن صحو وعن حيرة لم تكن تخالج الا القلة القليلة من معاصريه . يقول :

لا تقربوا الخضراء ان رجومها	**مرصودة وكفتكم الغبراء**
واذا أبيتم فابشروا بصواعق	**غير التى يطفى لضاها الماء (1)**

ثم ينتقل من التلميح الى التصريح :

قل للفرنسيس المجاور أرضنا	**ما قبلكم نطحت أسودا شاء**
لكنها احلام سلم قد مضت	**ستريكم تأويلها الهيجاء (2)**

ولكن محمود قابادو لا يغتر بهذا النفس العنترى فهو يدرك ابعاد الثورة الصناعية الاوروبية التى يعايشها ، لذلك كان يعتقد ان ضمان المناعة والعزة موقوف على اليقظة والعمل والاخذ باسباب التطور ، اذ يقول فى ابيات دالة رغم ثقل أسلوبها وجفاف نظمها :

---

(1) ديوان قابادو ج 1 / ص 20 .
(2) ديوان قابادو ج 1 ، ص 22 .

فمن لم يجس خبرا « أربا » وملكها — **ولـم يتغلغـل فى المصانـع فهمـه**
فذلـك فى كـن البلاهـة داجـــن — **وفى مضجع العادات يلهيــه حلمـه**
لقد فاتنا فى بادىء الـرأى صوبنا — **وأشفى لعمرى ان يفـوت ختمه (3)**

وكان ما كان ومد الاستعمار الفرنسى ظلاله الثقيلة على تونس ولم تعترضه الصواعق التى بشر بها فلقد كان الشعب كمية مهملة والحكام بملذاتهم لاهين بيد ان نخبة من رجال الاصلاح ما فتئـوا يستقضـون المضاجـع ويحركـون السواكن ولم تلبث الاختمارات الفكرية ان تمخضت عن تأسيس الحزب الحـر الدستورى سنـة 1920 أى بعد الحـرب العـالمية الاولى التى استعجلت خطـى التاريخ وبلغت بالوعى القومى حدا مكن من بعث تنظيم سيـاسى يعبـر عـن مطامح الشعب ويعبىء الطاقات من أجل تحقيقها ومما ساعد بلا ريب على تركيز هذا الحزب وعلى انتشار دعوته ، انضمام الشاعر الشاذلى خزنـدار (1881 ـ 1954) الى صفوفـه الاولى ابان انبعاثه ولا أدل على أهميـة هذا الانخراط من انتخاب الشاعر عضوا باللجنة التنفيذية وتلقيبه « بشاعر الخضـراء » قبل ان يبايع أميرا للشعراء .

ثم ان انتماء الشاذلى خزنه دار لحزب وطنى يمكن اعتباره ثورة فى حد ذاته، اذ لم يكن فى اصل هذا الشاعر ولا فى نشأته ما يؤهله او ما يهيئه ليلعب مثل هذا الدور السياسى الشعبى ، فالرجل منحدر من عائلة ارسطوقراطيـة اقل ما يقال فيها انها كانت متواطئة مع النظام الحاكـم وقد ربى بمعزل عـن ابناء الشعب ، فى بيته تعلم ودرس فقد كان والده « مقتنعا بنظرية الابتعاد عن كل الاوساط عاليها وسافلها خشية العدوى أو التأذى بما فيها من شرور » (4) ثم ان الشاعر تزوج بأميرة ، وبفضل هذه المصاهرة انخرط فى سلك ضباط القصر وليس يسيرا ان يعرض رجل من طبقته عن الجاه والوجاهة ، وليس سهلا ان تخترق اصوات البؤساء والمحرومين بر القصر الذى يعيش فيه فاذا بالسيد يهب للدفاع عن المستعبدين وليس قليلا ان يقضى فى السجن 15 يومـا وان يجرد من وظيفه من اجل كل ذلك :

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى — **حبسى وفـوق الرأس تـاج مفاخر**
زعموا بـان لـدى خطــة ضابط — **ونسوا بـان لـدى خطـة شـاعر**
هـا اننى بالرغـم عـنى قائــد — **مـا بينهم لكـن بـدون عساكـر**

---

(3) ديـوان قابادو ج 2 ، ص 20 .
(4) ديوان خزنه دار ، المقدمة ، ص 12 .

سبحت جيوشي تحت اعلامي نعم — لكنها في بحر شعري الزاخر
قد كنت احمل ذلة لاخطة — حتى تراني خاجلا من ناظري (5)

وهكذا يخلع الرجل زى الضابط لعدم التوافق مع « خطة الشعر » وانه ليشعر بالارتياح والفرح فقد ظفر بما كان يريد اى بالعودة الى جوهره فيقول :

هذى الحياة شريفة وتلذ لى — ولها خلقت وطار فيها طائرى
ان شئت كان الشعر سيفا قاطعا — او كان ـ ان احببت ـ كنز جواهر (6)

لقد كان السجن فرصة نادرة التقى فيها الشاعر بذاته وبتونس الحبيسة مثله فأحس بما تحس وازداد اقتناعا بضرورة العمل من اجل تخليص الوطن المستضعف :

سلا تونسا عنى وعنها سلانيا — أنانا بها ادرى وتعلم ما بيا
سجنا معا فازداد كل صبابة — وما غاب كل عن أخيه ثوانيا
أعد لنا الحساد بالسجن خلوة — فزدنا التحاما عندها وتشاكيا (7)

وتخلص الشاعر نهائيا من القيود الخاصة التى كانت تكبله فتفرغ للشعر ، وليس من المبالغة فى شىء ان نقول انه كان اول شاعر تونسى معاصر أدرك بعمق متطلبات رسالة الايقاظ التى تلقيها المرحلة التاريخية على عاتق الشعراء . ولعله من المفيد ان نستمع الى احد زعماء الحزب آنذاك معبرا عن تصور القيادة السياسية للشعر المناضل . يقول محيى الدين القليبى فى المقدمة التى كتبها للطبعة الاولى لديوان خزنه دار « ان للشعراء مكانتهم فى كل انقلاب وجد على وجه الارض » (8) لكنه يحكم بعدم جدوى ضرب من ضروب الشعر « صرف عن الغاية منه الى مقاصد وأغراض خاصة ربما اخرجته عن وظيفته وباعدت بينه وبين مهمته فصار ليس بشعر » (9) ثم يتخلص المقدم الى صاحب الديوان مشيدا باسهامه فى تغيير ما بقومه بعد أن غير ما بنفسه ، فيقول « قد امتاز

(5) ديوان خزنه دار ، ص 74 .
(6) نفس المصدر ، ص 75 .
(7) نفس المصدر ، ص 90 .
(8) نفس المصدر (المقدمة) ص 9 .
(9) و (10) ديوان خزنه دار (المقدمة) ص 10 .

هذا الأخ بالشعر الفحل والتعبير الجزل والقول الفصل والحكمة البالغة والحجة الدامغة والحماس المنبه (...) والوعظ المؤثر والنصح الخالص ، وهو على كل ذلك جندى المعركة وابن الوسط واخوه وهو احد مصادر التطور والانقلاب الذى يتمخض به هذا الوسط » (١٥) .

حكمة وحجة وحماس ووعظ ونصح ! أهذا هو الشعر ؟ تلك مسألة اخرى سنشير اليها خلال هذا البحث . ان ما يهمنا ان نعرف هو ان الشاذلى خزنه دار قد جمع كل الخصائص التى كانت مطلوبة فى الشعر التونسى خلال العشرينات فقد احتلت الموضوعات المتصلة بالمعركة الوطنية وبالاصلاح الاجتماعى ما يزيد عن نصف ديوانه ، اذ كان منتبها الى كل ما يجرى حوله من احداث تمس بواقع افراد الشعب وبمصيرهم ولعل قصيد « واقعة سوق الاربعاء » من أحسن قصائده شكلا ومضمونا وهو يصور عملية تعسفية قام بها احد المعمرين الفرنسيين بسوق الخميس (بوسالم اليوم) التابعة لمركز المراقبة المدنية سوق الاربعاء (جندوبة اليوم) . وخلاصة الحادثة أن عاملين من عمال ضيعة « دومانيفال » قد امتدت ايديهما صبيحة يوم عيد الاضحى من سنة 1922 الى بعض عناقيد العنب من كروم الضيعة فأمسك بهما المعمر وامر بصلبهما وأيديهما مشدودة الى الوراء وبقيا على هذه الحال ساعات طويلة وقد نالت السياط من ظهريهما حتى اشرفا على الهلاك فأخذا الى المستشفى حيث قطعت احدى يدى كل منهما نتيجة ضغط الوثاق ، وقد نددت الصحافة التونسية بهذا التصرف السادى الذى يتجاوز حدود الاجرام العادى اذ فيه احتقار وامتهان لمادة بشرية اسمها « اندجان » أى أهليون ، كما تناول عدد من شعراء الفصحى والدارجة هذا الموضوع فكان لهذه الحادثة صدى واسع بكامل انحاء البلاد وسخط الشعب وثارت ثائرته فضاقت بذلك سلطات الحماية وارتكبت . فلنستمع الى الشاذلى خزنه دار يصف العاملين الصليبين وما ذاقاه من عذاب ونكال :

يهتز صوتهما الرنين	**بين التهدج والانين**
... يتوجعان ولا مغيـ	**ـث ولا رحيم ولا معين**
... متدليان كلاهما	**قد شد بالحبل المتين (١١)**

ويستغل الشاعر هذه الحادثة وما تنطوى عليه من وحشية للرد على ما يدعيه المستعمر من عمل تمدينى وتربوى فيما استولى عليه من اقطار :

(١١) ديوان خزنه دار ، ج ١ ص 39 .

هـــدى دروس قـد رويــ ـــناهــا عــن المتمدنيـــن
نعــم الاساتـــذة الفطـــا حـل والمــدارس والفنـــون
تمــل فتمتــلء المحـــا جـرو المدامــع والجفـــون
سلنـــا فنحـن شروحهـــا سلنا فنحـن لهـا متـــون (12)

والقصيد يختلف عن القصائد التى قيلت فى نفس الموضوع ونفس المعنى ، اذ اجتنب فيه الشاعر التقريرية الجافة (13) التى نجدها عند شـاعر عصامى مثله سخر قريحته هو أيضا للتشهير بجرائـم المستعمر ولاستنهاض العزائم وزرع بذور التحدى والمقاومة ، هو سعيد ابو بكر (1899 / 1948) الذى نكتفى هنا بهذه الاشارة اليه نظرا الى تخصيصه ببحث فى هذا الملتقى (14) ونظـرا كذلك الى الحدود التى التزمنا بها فى هذا العرض ، فانه يحسن بنا الاقتصار على تقديم الشاذلى حزنه دار باعتباره رائد الشعر الوطنى الكلاسيكى بلا منازع فيما بين الحربين العالميتين ، وقد عكس فى قصائده كل الاهتمامات التى كانت تخامر أمثاله من الشعراء . وقبل الانتقال الى تقديم لون آخر من شعر الايقاظ والتحسيس ، نشير الى سهر الشعراء عـلى حراسة مقومـات الذاتية القوميـة ووقايتها من الاضمحلال والذوبان ، من ذلك موقف الشاعر مــن قضية هامـة عرفت بقضية التجنيس فقد فتحت السلطات الاستعمارية باب التجنيس امام التونسيين مغرية اياهم بتمتيعهم بامتيازات الفرنسيين المقيمين بتونس وكانت كثيرة مجحفة ، ولم يخف على القوى الوطنية ما فى هـذه الدعوة مــن محاولة استيعاب المتعلمين التونسيين ومن خطر يهدد بمسخ الهويـة وبالقضاء عـلى الشخصية التونسية ، وقد تصدى الشاذلى خزنه دار الى هـذه المحاولة فنظـم ما سماه « بنشيد التجنس » على بحر المجتث وجعله متكونا من لازمـة ودور . وواضح ان الشاعر اعده للتحلين حتى يحفظه جمهور المواطنين ويتغنوا بـه وبذلك تقوى المقاومة وتشتد ، ضد هذه المناورة :

---

(12) ديوان خزنه دار ، ج 1 ص 40 .

(13) انظر ديوان السعيديات ص 90 . واقرأ القصيد الجاف الذى نظمه صاحب الديوان فى نفس الحادثة .

(14) انظر بحث الاستاذ الحبيب الشاوش ، اضافة الى أننـا نعتزم افراد هذا الشاعر ببحث نسلط فيه بعض الاضواء على مختلف جوانب تجربته .

لازمـــة

لســت المبــدل جنســي ‏ كــلا ولا أتــــردد
ان كــان يـرضى الفـرنسي ‏ فليس يـرضـــى محمـد

دور

قــالــوا التجنس كفـــر ‏ فقلــت : اقبـح كـــفر
فــانــت قبلـه صفـر (15) ‏ وبعــده تحــت صفــر
لــم تجــد بيض وصفـــر ‏ تعطيكهـــا ام دفــــر
قلــــب المجنس قفــــر ‏ بــل حالـك اللــون أسود

دور

مــن منكــم جنســـوه ‏ مـــاذا استفــاد لعمـرى
فــى جنسهــم الحقـــوه ‏ كالـــواو ظلمـــا بعمــرو
مـذبـذبـــا صيـــروه ‏ بــه الفريقـــان يــزرى
ضاعـــت عليــه بنــوه ‏ فشملــه متبــدد (15 مكرر)

وكان لهذا الشعر على بساطته اثر كبير فى استثارة غيرة الشعب وحميته وكان ان شبت معركة انتصرت فيها القوى الوطنية وباءت محاولة التجنيس بالفشل . وعندما اندلعت معركة السفور والحجاب اثر ظهور كتاب « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » للطاهر الحداد (1899 – 1935) ساهم الشعراء فى الخصومة (16) فمنهم من انتصر للمؤلف مثل الشيخ سالم بن حميدة وسعيد ابى بكر وعبد الرزاق كارباكه ومنهم من ناوأه ونادى بالتمسك بالحجاب مثل ابى الحسن بن شعبان والطاهر القصار ومصطفى آغه . فماذا كـان موقـف الشاذلى خزنه دار الشاعر المسموع اكثر من سواه فى ذلك العهد ؟

بالرغم مــن معاداة الحزب « لبدعــة » الطاهر الحداد ومــن مناداة الزعمـاء بالمحافظة على العادات والتقاليد بما فى ذلك الحجاب باعتبار ذلـك مظهرا من مظاهر الذاتية القومية ، وبالرغم من شدة المحافظـة فى البيئـة البرجوازيـة التونسية التى كان ينتسب اليها الشاعر ، فانه لم يتمالك من ان يساند حركة

---

(15) هذا الصدر يتضمن زحافا واضحا .
(15مكرر) ديوان خزنه دار ص 50 – 51 .
(16) انظر كتاب الطاهر الحداد والبيئة التونسية فى الثلث الاول من القرن العشرين تاليف أحمد خـالد .

تحرير المرأة بصراحة عرضا نفسه الى امتعاض رفقائه فى النضال والى استنكار ابناء طبقته ، اذ قال :

حجبوك يا اخت الغزالة بينهم — انى يكون على الشموس حجاب
هذى يطير الكون اشراقا لها — عجبا وهذى بالشروق تعاب
وقضى الزمان بما قضى وتقطعت — من اجلها برقينا الاسباب
انى أحاشى الدين عن ارهاقها — من دوننا : فلتفتح الابواب (17)

ولا عجب فى ان يتجرأ خزنه دار فيشذ عن الخط السياسى وما يفرضه من انضباط فيناصر المرأة ، ذلك انه ادرك منذ الطفولة اهمية ان تكون المرأة متعلمة ففى قصيدة (18) نظمها بمناسبة بلوغه السبعين من العمر واستعرض فيها كل أطوار حياته ومطلعها :

تذكرت ايام الطفولة والصبا — وان هى فى شيخوختى انتثرت هبا

يذكر لنا انه تعلم القراءة والكتابة عن امه فاطمة وعنها درس كتب الادب والتاريخ فقدحت فكره وألهبت شعوره الوطنى :

وعن فاطم امى اخذت دراستى — وعنها تعلمت الكلام المركبا
اطالع سفر الالف ليلة عندها — ومستطرفا ايضا وان كان اصعبا
ومن صحف التاريخ والفتح هيات — لنفسى شعورا رافق القلب ملهبا

وان ديوان خزنه دار ليفاجئنا احيانا بافكار تعتبر تقدمية فى عصره فقد كان مثلا يؤمن بالتطور فى كل شىء داعيا الى التخلى عن التقاليد البالية فيقول :

مضى زمان تقاليد نقدسها — ولا نشاهد ما فيها من الخلل
وللتقاليد آجال محددة — وكل عصر وما فيه الى أجل (19)

وقد لا نبالغ اذا قلنا ان الشاذلى خزنه دار هو اكمل انموذج للشعراء التونسيين الكلاسيكيين الذين افرزهم الثلث الاول من هذا القرن . ومن البديهى انه اذا سلطنا مقاييسنا النقدية الموضوعية ومفاهيمنا الحديثة للشعر،

---

(17) جريدة البوق 1936/10/19 .
(18) قصيد لم ينشر اطلعنا عليه السيد الحبيب شيبوب .
(19) ديوان خزنه دار ، ج 1 ص 62 .

على دواوين خزنه دار وامثاله من شعراء زمانه لما استبقينا منها الا ابياتا متناثرة ولكن لهذا الشعر قيمة تاريخية لا تنكر ، وعلى هذا الاساس فانه يهم مؤرخ الأدب اكثر مما يهم ناقده . ذلك ان هذا الشعر قد ادى رسالته الظرفية خير اداء فقد اضطلع بعملية الايقاظ والاثارة ، نادى فاستمع اليه ، واستغضب فاغضب وردده الناس متعلموهم واميوهم على السواء وما كانت سلطات الاستعمار لتسجن بعض الشعراء وتطاردهم لو لا انهم اقضوا باشعارهم مضاجع السلطة الغاشمة .

ولقد كانت السمعة والهيبة والاهمية التى اكتسبها معظم شعراء ما بين الحربين عظيمة الى درجة ان عددا من دارسينا ونقادنا مازالوا بهم منبهرين فهم يكادون لا يذكرون احدهم الا منعوتا بالشاعر الكبير ولا يتعرضون لقصائدهم الا موصوفة بالرائعة رغم ما فيها فى معظم الاحيان من ثقل وخلل وجفاف والملاحظ ان هذا الضعف يرجع اساسا الى سرعة النظم التى تقتضيها مواكبة الاحداث كما يرجع الى ضرورة مخاطبة القاعدة الشعبية العريضة بما تفهم وكذلك الى اضطرار الشاعر الى استعمال لغة الجرائد وشعارات الخطب السياسية عندما يشعر بان مخزونه الثقافى واللغوى العتيق لا يفى بالحاجة .

ولقائل ان يقول ان هذه النماذج ليست من الشعر فى شىء اذهى مجرد نظم ، وفى رأينا انه لا يجوز تطبيق النظريات الحديثة فى الشعر على هذا الانتاج ، اذ هو ينتسب الى الشعر العربى القديم الذى يغلب عليه جانب ما يسمى بالصناعة . ومهما يكن من امر فان هذا النظم هو الذى حرك الجماهير وعبر عن طموحاتها ، ثم انه لا يحق لنا تجريد هذا النظم من عاطفة وطنية صادقة تجعل الحدود بين الشعر والنظم نسبية الى حد كبير .

وخلاصة القول انه لو لا ظهور ابى القاسم الشابى فى اواخر العشرينات وبداية الثلاثينات لاحتفظ امير الشعراء الشاذلى خزنه دار بشرعية حمل التاج والصولجان .

وما دام الشابى قد خص فى هذا الملتقى ببحث مستقل (20) فانه يحسن بنا الاقتصار على ما نراه ضروريا من الملاحظات بشانه او على ما يمكننا من الربط بين المراحل التى مرت بها الثورة فى الشعر التونسى .

---

(20) انظر بحث الاستاذ عبد الحميد الشابى .

ان اول ما يلفت النظر في هذا الصدد هو ان الشابي على عكس معاصريه من الشعراء لم يسجل في شعره حادثة وطنية ما ، اى انه لم يودع ولم يستقبل زعيما ذهب الى المنفى او عاد منه ولم يتوجع لرزء معين اصاب ابناء الشعب ولم يحاول ان يلهب حماس الجماهير . فهل يعني ذلك أنه كان يفضل الجلوس على الربوة مكتفيا بكتابة بعض القصائد الوطنية ذات الصبغة العامة ؟ لا نظن ، فكل ما في الامر في نظرنا ان للشابي مفهوما للشعر مخالفا للمفاهيم المألوفة . انه يرفض الشعر الذي يفتقر الى المعاناة واصالة التجربة والخيال الفني ، وليس ابعد عن الخيال والمعاناة من الشعر التقريري . ان الشابي يرفض الارتباط بزائل الاحداث ، يرفض ان يسمي الاشياء اذ لا يهمه منها الا ما تنطوي عليه من حقائق خفية باقية فالاحداث ايضا زبد يذهب جفاء . ثم ان الاستعمار لا يتجسم أساسا في اقدام معمر على صلب عاملين من عماله يوم عيد ، ان الاستعمار استعمار حتى لو كان بالاهليين رحيما .

ان كل الاحداث التي عاشها الشابي، وكذلك وعيه بواقع بلاده قد أوحت له ببيتين اثنين حفظهما الشعب التونسي باسره ونسي كل القصائد النارية الاخرى التي كان قد تفاعل معها تفاعلا كبيرا . نسيها وكأنها كانت نار تبن تصاعد لهيبها وسرعان ما خبت ، وحفظ بيتي الشابي كما تحفظ الحكمة الازلية :

اذا الشعب يوما أراد الحياة — فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي — ولا بد للقيد ان ينكسر (21)

على ان الشابي قد نظم عدة قصائد قد تكون مرتبطة في ذهن الشاعر بظروف معينة ففي قصيد الصيحة (22) يدعو الشعب الى التخلص من الجهل الذي هو أصل كل البلايا وفي قصيد الى « الطاغية » (23) ينذر المستعمر المستبد بقرب انتفاضة الشعب الذي لا يقهر ، وفي قصيد « الى الشعب » (24) يتحسس الشاعر مواطن النبض في جسد الامة فيقول :

---

(21) ديوان اغاني الحياة ص 240 .
(22) نفس المصدر ص 28 .
(23) نفس المصدر ص 64 .
(23) نفس المصدر ص 64 .
(24) نفس المصدر ص 250 .

اين يا شعب قلبك الخافق الحساس ؟ ايـن الطموح والاحـلام ؟

اين يا شعب روحك الشاعر الفنـان ؟ ايـن الخيـال والالهـام ؟

اين يا شعب فنك الساحر الخـلاق ؟ ايـن الرسـوم والانغـام ؟

ان يـــم الحيـاة يـدوى حواليـك فـاين المغـــامر المقـدام ؟

ان الشاعر يمنح الشعب حق الحلم والخيال وحق الابـداع الفنى فى وقت كان يعتبر فيه الفن من قبيل اللهو او من سفاسف الامور ، ذلـك ان الشـابى الداعى الى « ارادة الحياة » يدرك ان هـذه الارادة لا تتحـرك ولا تنمـو الا اذا استندت الى القوى الباطنية وملكات الخلق والى الاحسـاس العميق بالكـون والحياة . ولكن الشابى فى بحثه الدائب عن المطلق كثيرا ما كان يضيـق بما يلاحظه حواليه من جمود وغفلة فيخاطب الشعب فى لهجة التأنيب،ولعل اروع ما نظم فى هذا الغرض قصيد « النبى المجهول » الذى ضمنه تأملات فى مصير الشعب وفى امكاناته المهـدورة ، تنتهى الى اقرار مجموعة مـن الحقائق عـن الشعوب التى لم تبلغ سن الرشد ومازالت تفتقر الى القيادة القادرة على تعبئة كل طاقاتها الظاهرة والخفية وتسديد خطاها فى سيرها نحو الحرية والمستقبل:

ايهـا الشعب انـت طفـل صغيـر لاعـب بالتـراب والليــل مغـس

انت فى الكـون قـوة لـم تسسها فكـرة عبقريـــة ذات بـــأس

انـت فى الكـون قـوة كبلتهـــا ظلمـات العصـور مـن أمس أمس

والشـقى الشقـى من كـان مثـلى فى حساسيتى ورقـــة نفسى (25)

هذه الحساسية ورقة النفس هما قوام رومانسية الشابى ورؤيـاه الكونية وفى اعتقادنا ان قصائد الشابى الذاتية ساهمت ايضا فى العمـل الثورى اذ تأثر بها شباب الثلاثينات والاربعينات فعمقت احساسهـم بمنزلتهم وخلقـت فيهم حاجات وطموحات جديدة ومعلوم انه كلما رق الاحساس قـوى الشعور بالكرامة واشتد التوق الى الحرية .

وقبل الانتقال الى شعر الثورة بعد الحرب العالمية الثانية حيث بـدأ العـد التنازل بالنسبة الى الحضور الاستعمارى في تونس،لا بد ان نتعرض ولو بايجاز

---

(25) اغانى الحياة ص 151 .

الى شاعر مخضرم عاصر اجيالا من الشعراء وتعايش مع كل التيارات الادبية ، نعني مصطفى خريف (1909 / 1967) الذى كان آخر واكمل ممثل للمدرسة الكلاسيكية فى منتهى نضجها وعطائها ، وان كان شعره الوجدانى أمتن واخصب من شعره السياسى .

كان مصطفى خريف ، الى جانب تفاعله مع الاحداث الوطنية ، مؤمنا بوحدة الامة العربية عموما وبوحدة المغرب الكبير بالخصوص ففى قصيد نظمه سنة 1946 بعنوان « قلب المغرب » يحيى الطلبة الجزائريين فى ذكرى المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس فيقول :

حى الجزائر فهى قلب المغرب واهتف لفتيتها الكرام ورحب (26)

وفى سنة 1947 يحيى الوفد المغربى الذى زار المدرسة الخلدونية :

تحيات ودلا تعد ولا تحصى من المغرب الادنى الى المغرب الاقصى (27)

وتتجاوز القصائد من هذا القبيل مجرد التحية التقليدية الى التذكير بأواصر الأخوة والمحبة وبضرورة تضافر الجهود من أجل التحرير واستعادة ما ضاع من امجاد .

ويصور مصطفى خريف الامال العريضة التى بعثها فى نفوس العرب جميعا تأسيس الجامعة العربية فيحيى ذكراها الاولى (28) طربا نشوان وتندلع الحرب بفلسطين فيدعو الى التخلى عن اغراض الشعر التقليدية ، فالموقف يتطلب الفعل لا القول :

لا تلمنى ان نبذت الادبا وتقلدت حساما اشطبا (29)

وليس مصطفى خريف باول ولا آخر شاعر ينزلق فى مثل هذا التناقض اذ « ينبذ » القول بالقول من ناحية ، ناسيا من ناحية أخرى ان الكلمة الثورية المشحونة تتحول الى فعل أى الى طاقة محركة . ونلاحظ ايضا اثر المخزون

(26) ديوان شوق وذوق ص 42 .
(27) نفس المصدر ص 50 .
(28) نفس المصدر ص 59 .
(29) نفس المصدر ص 68 .

الثقافي العتيق في مثل هذا الشعر الذي كان رائجا حتى نهاية الاربعينات والذي يتحدث عن الحسام في فترة أصبحت تتبارز فيها الدبابات . ومثل هذه المفارقات التاريخية كثيرة عند الشعراء الكلاسيكيين ، ورغم ما في « الحسام » العربي من رموز النصر والفتح ، فان « تقلد الحسام » في القرن‌العشرين يمثل مأساة الفكر والساعد العربيين في مواجهة تحديات العصر .

ثم ان الشاعر ينبذ الغزل والجمال والحب ليتفرغ بكل جوارحه للمعركة ، وكأن الحب والجمال مسلاة لا تليق بالمناضلين .

ما غناء الفجر ؟ ما نوح المسا ؟ ما اصطخاب البحر ؟ ما همس الربى ؟
ما الهوى ؟ تبا لاصحاب الهوى مذهب الحمقى ، اعتزلت المذهبا
ظل غمر وقف العمر على قامة هيفا وثغر اشنبا (30)

وواضح ان مصطفى خريف الكلاسيكي يعرض هنا بالشعر الرومانسي ويعتبره دعوة الى القعود عن العمل . وليس هذا مجال التحكيم بين الاصوات الداخلية المنبهة وبين القرقعة الخطابية التي لا تعرف مبالغاتها حدودا . من ذلك ان مصطفى خريف يعبر عن عزم العرب الراسخ على التصدي للعدوان وعلى كسر شوكة الاعداء مهما كانت قوتهم ، في بيت لا يخلو من الطرافة على كل حال :

انا لو نازعني شهب السما في بلادي لا حتللت الشهبا (31)

وبالرغم من اعتزالنا « مذهب الحمقى » تنهزم الجيوش العربية سنة 1948 وتضيع فلسطين ويتحول التهديد والوعيد الى بكاء ورثاء وبالتالي الى لفظية جوفاء .

احق تراث الرسل نهب مقسم احق غزا جيش العدو فلسطينا
فوا لهف قلبي حين امست اسيرة مكبلة تشكو الهوان وتدعونا (32)

وهكذا يتبين ان الشعر التونسي المناصر للقضايا العربية وقضية فلسطين على الاخص لم يكن يختلف عن معظم الشعر العربي في الاربعينات ، فالكل

(30) ديوان شوق وذوق ص 69 .
(31) نفس المصدر ص 11 .
(32) نفس المصدر ص 98 .

يغترف من رصيد واحد يزخر بالتراكيب الجاهزة والعواطف المعلبة . وعلى كل فان هذه الابيات نسوقها للدلالة على ان الشعراء التونسيين كانوا شديدى الانتباه لما يجرى فى الاقطار الشقيقة يرجعون صدى ما ينزل بها من نوائب او ما يتحقق فيها من طموحات ، وذلك انطلاقا من العدوان الايطالى على طرابلس الى الانتصارات الكمالية فى الحرب التركية اليونانية ، وقد عبر الشعر التونسى عن اعتزازه بالثورة الكمالية الا انه سرعان ما عبر عن خيبة الأمل امام تنكر القائد التركى للخلافة رمز الوحدة الاسلامية وازاء اعلانه علمانية الدولة (33) وغنى عن البيان ان الشعر التونسى قد ردد على اوسع مدى صدى الحرب البطولية التى خاضها الشعب الجزائرى الشقيق ضد الاستعمار ، كما جاء فى بحث جعفر ماجد فى هذه الندوة .

ولكن شعراء الخمسينات بدأوا يدركون ان التباهى بالامجاد القديمة ربما كان عائقا حال دون تقييم الاوضاع العربية تقييما صحيحا ، وربما تسبب فى طمأنينة خادعة جعلت العرب لا يعدون العدة كما ينبغى . لذلك كان لابد من الشروع فى عملية نقد ذاتى مرير . يقول محمد العروسى المطوى :

اغنية الشرق القديمة
نحن البناة الاولون
كنا الالى فتحوا الطريق
كنا الالى بعثوا الهداة
اغنية الشرق القديمة
ظلت عثارا فى الطريق
ابناؤها يتجرعون
غصصا من السم الزعاف
سم التأخر والتدلى والبوار
هم هائمون
صرعى لآفات مشومة
« افيونة » الصين الخطيرة
« و حشيشة » النيل اللعينة
و « حروز » اطلسنا الكبير
وزهادة الهندوس في نبع الحياة (34)

نلاحظ ان ظهور هذه اللهجة الجديدة قد اقترن بظهور الشعر الحر الذى كان اول من استعمله فى تونس فى مطلع الخمسينات محمد العروسى المطوى ومحسن بن حميدة اقتناعا بان تجديد المضمون يتطلب تجديدا فى الشكل وبان الايقاع المتولد عن الشعر الحر أقرب الى أصوات العصر واكثر اثارة ،

---

(33) انظر ديوان خزنه دار ص 129 ، 132 ، 145 ، 151 ، 241 .
(34) مجلة الفكر 1955 ، العدد 2 ص 52 / 53

ولكن محسن بن حميدة لا يختلف احيانا فى مضامينه عن مصطفى خريف الذى يعلن ، كما اسلفنا ، عن تخليه عن الحب والحسان ، فقد جد الجد ولا مجال لغير الفعل ، فمحسن بن حميده يقول فى قصيدته « عهد جديد » :

... فاهملت حبى وهو فريد
واخفيت شوقى وهو شديد
مكـان اللعـب
وطـى الكتـب

وأطلقت شعرى يسير نمير
لحقـن الدمـــاء
واوقفت عزمى على الاشقياء (35)

ان اتهام شعر الحب بالميوعة والتمييع والتخلي لا يستند الى أية حجة وتجدر الملاحظة فى هذا المجال الى أن الشاعر الفرنسى « أراغون » كـان ينظم قصائد الحب داخل صفوف المقاومة ضد الاحتلال النازى وعلى كـل فان شعـر الحب والمرأة عندنا لا ينتهى الا سنة 1967 . فالغزل كان من ضحايا حرب الايام الستة فهزيمة حزيران لم تكن عسكرية بقدرما كانت فكرية وحضارية . لقد انهارت اذ ذاك كل الامال العربية وكل القيم وأحس الشاعر التونسى بهشاشـة كـل ما كان يؤمن به : لقد تبين أن الحكام «انصاف الآلهية» بشر يخطئون اكثر مما يصيبون ، وتأكد ان بطولة الجندى العربى التى تغنى بها الشعر منذ الجاهلية منطاد ينفش ويذهب هباء مع الريح لمجرد وخزة من دبابيس القرن العشرين، وثبت انه لا يكفى ان يكون لنا ماض ليكون لنا مستقبل.وعندئذ شارك الشاعر التونسى فى حملة النقد الذاتى التى انتشرت فى كامل انحاء البلاد العربية ، وكان مهرجان الشعر الحادى عشر المقام بمناسبة انعقاد المؤتمر التاسع للادباء العرب بتونس (مارس 1973) فرصة للشعـراء التـونسيين للمشاركة فى مرافعة الاتهام وقرار الادانة .

ويستخلص الميدانى بن صالح فى قصيد فى منتهى الجرأة بعنوان «اعتذار» معانى هذا اللقاء المأسوى لقاء الشعراء العرب بل ويتساءل عن جدواه والحالة العربية على ما هى عليه :

نلتـقى ... والارض والمسجد فى قبضة مارد
نلتـقى ... والحاكم المهزوم مسطول وشارد
نلتـقى ... والمدفع الرشاش مشلول وبارد

(35) ديوان قافلة العبيد ص 26 / 27 .

نلتــقى ... والثائر الرافض مسجون مطارد

بين شعب فاقد للصوت مسلوب الموارد (36)

أى معنى لهذا اللقاء الفكرى ما دام « الفكر تجارة » و « الجملة للظلم ستارة » و « الاقلام مشلولة ترهب المخبر » و « رجال الفكر اقزاما يعيشون عـلى مائدة التهريج » ربما نلتقى ذات يوم :

نلتقى لو يصبح المحكوم نسرا ... لانعامه

عندما يسترجع الفكر الكرامه

عندمـا لا تصبـح الاكواخ فى جنب قصور الامراء

وصنـوف الزعمــاء ... (37)

اما جعفر ماجد فانه يدعو الى تحطيم « الاصنام » بعد ان راعه ما آلـت اليه الامة العربية نتيجة قرون من الجور والاكاذيب والنفاق وعبادة الذات .

اذا عزمنـا عـلى تحقيـق معجـزة — لا شىء يجمعنـا غير الشعـارات

فتحـت عينى عـلى دنيـا مروعـة — كأنها لـم تكـن مهـد الحضـارات

الحـق يملكـه مــن ليس يتبعـه — وللشعـوب حقـوق غـير معطـاة

لا تحسبوا الشعر الفاظـا مكبلـة — تحنى الجبـاه باعتـاب البلاطـات

ذل المديـح وذلـت كـل قافيـة — لم تنفجر مثل الغام العصابات (38)

من الواضح ان الشاعر يريد تفجير الالغام ضد الانظمة الفاسـدة ، اى انه يؤمن بان المعركة ينبغى ان تبدأ فى الساحة الداخلية ، اذ لا يمكن ان نواجه العدو قبل ان نقتله فى انفسنا . ان اول مـا ينبغى ان نقاومه هـو الخوف من قولة « لا ! » . وفى قصيد « الصمت » يندد جعفر ماجد بهذا الجبن :

---

(36) ديوان من مذكرات خماص ص 75 .

(37) نفس المصدر ص 85 .

(38) ديوان غدا تطلع الشمس ، ص 8/9 .

هل تعرفون قيمة السكوت
حين يجف الحبر فى دواتنـا
والحـرف فى شفاهنـا يمـوت
حيـن نخاف ان نقول : لا !
ونشتهى لو غيرنا يقول : لا !
ويرفض السكـوت (39)

ثم يبرز الشاعر امكانات الكلمة الثائرة وواجباتها فى المرحلة الراهنة ، داعيا الى حمل الشعر سلاحا ، ذلك ان الكلمة الشجاعة المشحونة بالمتفجرات لا تخطىء مرماها أبـــدا :

من يهدم البيـــوت
ويكســر الحدود والفواصـل
من يملا الحروف بالقنابـل
ويقـذف القصائـد
على ذرى القصور والمزابل
من يفتـح الحصون والمعابد
بشعره المقاتل (40)

انه بامكاننا ان ندعى ان مثل هذا الشعر الساخط فى بلدان المواجهة عـلى الاخص قد كان له من الانتشار والاثارة لدى الجماهير العربية ما جعله عاملا من عوامل التعجيل بنشوب حرب اكتوبر ، وكنا نظن ان هذه الحـرب الـتى انتهت بلا نصر ولا هزيمة ستعيد الامل الى النفوس ، ولكن الواقع العربى لم يتغير فى جوهره ومازالت القيم معكوســة ومازال الخلط قائما بـين الاشياء البديهية التنافر ، لذلك يقول نور الدين صمود :

لـم اسمع عن ارض يوضع فيها الرأس مكان الرجل
لـم اسمع عن قوم لا فرق لديهم بين الضبية والعجل
لم اسمع عن شعب لا يدرك ان المزهر غير الطبل
هـذا امر لا يخطـر فى العقـل
لكن يحدث فى أرض يتفشى فيها الجبن مع الجهل (41)

---

(39) نفس المصدر ص 26 .
(40) ديوان غدا تطلع الشمس ص : 26 ــ 27 .
(41) مجلة الفكر اكتوبر 1978 ص : 124 .

يتبين من خلال هذه النماذج ان الشعراء التونسيين قد حاولـوا ان يكونوا ضمير الشعب وقلبه النابض ولقد ساهموا بلا ريب في تعبئة الطاقات الوجدانية لخوض معارك التحرير الوطنى كما انهم عبروا عـن طموحات الامـة العربيـة والتزموا بقضاياها المصيرية .

والسؤال المطروح الآن هو هل ان الثورة الشعريـة الهائلة الـتى شهدناها بعيد النكسة ضد الانظمة المسؤولة عن الفساد والهزيمة ، انطلاقـة شبيهـة بانطلاقة « عصفور » (42) يوسف شاهين أم انها مجرد متنفس يقى مراجـل الساحرات من الانفجار ؟ هذا السؤال موجه الى كافة الشعراء العـرب الـذين يبدو عليهم الاعياء بعد ان قالوا كل شيء ، أى بعد أن قالوا ما كان لا يقـال ولعنا اليوم بازاء مخاض عسير لا نعرف نوع مولوده .

عبـد العزيـز قـاسم

---

(42) اشارة الى الشريط القيم الذى انتجه هذا المخرج على هامش النكسة .

المراجـــع :

ابو بكر (سعيد) ، السعيديات ، تونس 1927 .
ابن حميدة (محسن) قافلة العبيد ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1967 .
ابن صالـح (الميدانى) ، من مذكرات خماس مؤسسات عـبد الكريم بـن عبد الله تونس 1977 .
البـوق (جريـدة) ، 19 اكتوبر 1936 .
خالـد (أحمـد) ، الطاهر الحداد والبيئة التونسية فى الثلث الاول من القرن العشرين الدار التونسية للنشر تونس 1967 .
خريف (مصطفى) ، شوق وذوق ، تونس 1965 .
خزنه دار (الشاذلى) ، ديوان خزنه دار ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1972
الشابى (ابو القاسم) اغانى الحياة ، الدار التونسية للنشر تونس 1966 .
الفكـر (مجلة) ، العدد 2 نوفمبر 1955 ، العدد 1 ، اكتوبر 1978 .
قابادو (محمود) ، ديوان قابدو (ج 1 و ج 2) ، الدار التونسية للنشـر ، تـونس 1972 .
ماجـــد (جعفـــر) ، غدا تطلع الشمس ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس 1974 .

الشمس تقول : صباح الخير !

شعر : يوسف رزوقه

أتسلّق وجهك يا امرأة تتجاوز بالحبّ الحدّ
وأبدأ بالتفتيش عن المطر الممتدّ
وراء ظلال الغربة في عينيك ...
تسلّقني زمن النعناع :
وسلّطني فى الحين عليك ...
وأعلم منذ البدء لماذا جزّأكِ التمساح الى أجزاءْ ؟
توغّلَ فيكِ
وصوتك مغلول يرسفُ مذبوحا في الصمتِ ...
وأعلم أيضا كيف تغمّدك النّهر الحالي بالموتِ
فعلّق صوتك فى وَمَدِ الصّحراءْ ...
أتسلّق وجهكِ يا امرأة الحزن الواحدْ
أتواجد فيك مع الوجه العائدْ
وأحبّك حتى يخضر الزمن البائدْ
وأكون الى حدّ ما ،
معترفا بالشمس تقولُ : « صباح الخير »
لعصفور قُصَّتْ في الليل جناحاهْ
وأكونُ سعيدا جدا حين تُدك الآهْ
فتزغردُ أمّي حتّى تهطلَ في الليل الامطارْ

* * *

أتسلّقُ وجهكِ يا امراة الخبزِ الطازجْ
وأحمّلكِ الفرحَ الرائجْ
واكون الداخل فيكِ
صدى أتداخلُ والضوء الخارجْ ...
وأضمك حتى تزهر فينا ألاشجارْ ...
أتسلقُ وجهك يا امراة الوهجِ الدّائمْ
وأقول لوجهك : كنْ صحوا يتكامل في الزمنِ الغائِمْ
تتهدّمُ دونه أعمدةُ النارْ

* * *

الآن أمدّ يدي
كي أقطفَ شمسا أنضجها الإعصارُ
وأكتب بالوشم الدّمويّ :
فصولا عن فصل العرس الآتي
الآن أرى وجهي المنهارْ
يتكوّن يا امرأة الفرحِ الآتي ...
فأغنّي والعشب المتصاعدُ من صوتي
يتحزّم بالأنهارْ

* * *

ويكون العشقُ الخارقُ للعادَهْ
ويكون المسجونُ العربيّ يمزّقُ جلاّدَهْ ،
ويهدّم بالرّفض الأسوارْ .

— يوسف رزوقه —

علم البيئة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة في تونس

بقلم: محمد الهاشمي حمزه

1) المقدمة والتعريف بعلم البيئـة :

علم البيئة أو « الايكولوجيا » علم حديث نسبيا ظهر منذ ثلاثين سنة وهو يعتنى بدارسة كل العناصر الطبيعية وأشكالها وعلاقة بعضها ببعض والتفاعلات التى تحدث بينها على أساس اعتبار البيئة أو المحيط الطبيعى ككل أو كنظام شامل لعدة عناصر وأشياء مختلفة ويمكن حصر العناصر الطبيعية التى يعنى بها علم البيئة فى خمسة عناصر أساسية وهى :

1 ـ الهـــواء

2 ـ المـــاء

3 ـ الأرض والتربة الأرضية

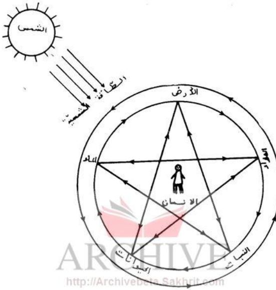
4 ـ النبـــــات

5 ـ الحيوانـات بما فيها الانسان

وتوجد العلاقة بين هذه العناصر الاساسية فى شكل دائرة أو عدة دائرات كروية متشبعة بيولوجية تتحرك وتتطور بتأثير الطاقة الشمسية عليها :

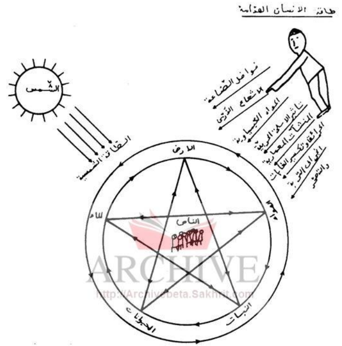
(مثال 1)

ويلتجىء علم البيئة الى كل العلوم الصحيحة والتطبيقية من رياضيات وفيزيا وكيميا وبيولوجيا والطبيعيات وعلم الحيوان والعلوم الاجتماعية وغيرهــا من العلوم التى تتصل بالحياة فوق الارض حتى أن هذا العلم الذى يتعلق بمعرفة البيئة يظهر من أصعب العلوم ولكنه فى الوقت نفسه تحتاج اليــه الانسانية قاطبة لمعرفة تطور المحيط الطبيعى الذى تعيش فيه للمحافظة على سلامته فى الحاضر والمستقبل .



مثال عدد 1 : الدائرة الطبيعية فى الزمن الماضى وهى تتحرك وتنشط بفضل الطاقة الشمسية التى تصل الى الأرض ويظهر الانسان داخل هذه الدائرة صغيرا تسيطر عليه العناصر الطبيعية .

وقد برز العنصر البشرى بروزا قويا داخل البيئة الطبيعية العالمية وأصبح يطغى عليها بفضل الاكتشافات والاختراعات العلمية التى وصل اليها والانجازات الكبرى التى بعثها فوق الأرض فكأن الطبيعة بدأت تتوارى وتفقد ميزانها أمام هذا العملاق البشرى الذى أصبح يسيطر على طاقات جديدة ويمكن له بفضل هذه الطاقات ونشاطه القوى أن يتسبب فى كسب خيرات كثيرة للبشرية كما يمكن أن يجلب لها المصائب والكوارث الباعثة للموت والاضمحلال مثل تلوث الهواء والمياه وفقدان خصوبة الارض وتربتها والتصحر وغيرها من المشاكل التى تعتنى بها الانسانية اليوم ويحاول علم البيئة درسها وعلاجها. (المثال عدد 2)



مثال عـدد 2 : الدائرة الطبيعية فى العصر الحاضر ويظهر فيها الانسـان فى مظهر العملاق الذى يهدد سلامة الطبيعة حسب أنشطته المتعددة .

---

2) علـم البيئة فى تونس :

بدأت العناية بعلم البيئة فى الجمهورية التونسية فى عدة مستويات خاصة منهـا التدريس الجامعـــى فـى نطاق تدريس علـم النبـات بكلية العلـوم ومعاهد البحوث الزراعية مثل المعهد القومى للبحوث الزراعية والمعهد القومى للبحوث الغابية ومركز بحوث الاشغال الريفية كما اجتهدت فيها أيضا مصلحة التربة التابعة لادارة التربة والمياه لوزارة الفلاحة والدراسات .

والمؤلفات العلمية للبيئة التونسية التى نشرت فى تونس فى ميـدان علـم

البيئة متعددة ونذكر الأهم منها فى آخر هذا المقال .

3) علم البيئة والتخطيط الاقتصادى الفلاحى :

وأهم دراسة تتعلق بالبيئة التونسية هى خريطة البيئة والمجتمعات النباتية لشمال تونس وقد وقعت هذه الدراسات بطلب من الحكومة التونسية عام 1977 موجه الى مركز دراسة البيئة والمجتمعات النباتية بمونبليى (Montpellier) الذى كان يديره الاستاذ الشهير فى علم البيئة أمبرجى (Emberger) والهدف الاساسى من هذه الخريطة هو دراسة مختلف البيئات الترابية والمناخية التى تقع شمال خط يصل بين مدينة النفيضة والقصرين ويقصد من وراء هذه الخريطة وضع تخطيط فلاحى محكم وتركيز المشاريع الفلاحية داخل وحدات ترابية محددة ــ وبالفعل فقد قامت وزارة الاقتصاد الوطنى بين سنة 1965 و 1968 بدراسات اضافية اقتصادية مكنت من تحضير ملف خاص بكل وحدة ترابية أطلق عليها اسم الوحدة الجهوية الانتاجية وعلى أساس هذه الدراسة ضبطت فى تونس سياسة التنمية الفلاحية التى قررت فى البداية أن تشجع على حد سوى القطاع الخاص والقطاع الحكومى والقطاع التعاضدى للوصول الى أهداف التخطيط الفلاحى ــ ولكن ظن البعض عام 1969 أن تعميم التعاضد والاسراع فيه يمكن أن يأتى بنتائج أحسن وأوفر ولكن هذا التعميم قوبل بالرفض من طرف الفلاحين والمواطنين وأقرت الحكومة الرجوع الى مبدأ التوازن بين القطاعات الثلاث الحكومى والفردى والتعاضدى .

4) علم البيئة وانجاز المشاريع الفلاحية :

لقد وضعت خريطة البيئة والمجتمعات النباتية لشمال تونس على سلم صغير (1/200.000) وهذا السلم قصده كما قلنا وضع التخطيط الفلاحى وتركيز الوحدات الترابية الانتاجية ولا يكفى هذا السلم لانجاز المشاريع الفلاحية واقامة الاعمال فى كل بقعة أرضية وتحديد الانواع الزراعية بها ويتطلب ذلك دراسات أدق وخرائط أوسع وأكبر على سلم يتراوح بين 1/10.000 و 1/5.000 وتتطلب اقامة هذه الخرائط اختصاصيين فى علم البيئة لا نجد منهم الا أفرادا قليلين موزعين بين مصالح مختلفة فى وزارة الفلاحة مثل مصلحة التربة والمعهد القومى للبحوث الزراعية والمعهد القومى للبحوث الغابية وادارة الغابات . ونستطيع أن نقسم المشاريع الفلاحية الى ثلاثة أقسام :

1 ــ **المشاريع الفلاحية فى الاراضى السقوية** وتخص انتاج الخضر والبقول والاشجار المثمرة .

2 ــ **المشاريع الفلاحية بالاراضى الغنية** وتخص الانواع الزراعية الآتية :

- الزراعات الكبرى (الحبوب)
- الاشجار المثمرة
- تربية الماشية

3 - **المشاريع الفلاحية بالاراضي الغابية الهامشية الضعيفة** وهي تتعلق خاصة بـ :

- غراسة الغابات وفلاحة الغابات
- تربية الماشية التقليدية في الاراضي الهامشية
- استغلال الحلفاء
- أشغال المحافظة على التربة والمياه

أ) **أما المشاريع الفلاحية في الاراضي السقوية** فهي التي وجهت اليها أكثر العناية من ناحية دراسة خاصية التربة والطاقة الانتاجية وقل أن نجد منطقة سقوية بدون دراسة اضافية من ناحية التربة والبيئة وعلى سلم كبير ولكن كثيرا ما يحدث أن الفلاح صاحب الارض ليس له المستوى الكافي لادراك ما في هذه الدراسات حتى يفهمها وينتفع بها إما لأن هذه الدراسات مكتوبة بالفرنسية أو لأن الفلاح جاهل لا يقرأ ولا يكتب .

ب) **في الاراضي الزراعية الغنية** : لم تعمم فيها الدراسات الدقيقة التي تتعلق بالتربة والمجتمعات الفلاحية ولم تقع الا في بعض الاراضي الدولية التي تشرف عليها ادارة خاصة دولية (Agro - Combinat) وهناك صعوبات تظهر في :

أولا : تكاليف الدراسة التي تتحملها الدولة وحدها ولا يريد أن يطلبها الفلاح أو يساهم في تمويلها :

ثانيا : فهم الدراسة وتطبيقها تطبيقا شاملا .

وغالبا ما يستعين الفلاح صاحب الارض بتجربته ومعرفته الخاصة لترابه لكي يركز في ضيعته أنواع الزراعة أن كانت حبوبا أو أشجارا مثمرة أو علفا . وكثيرا ما يخطىء في اختياراته لأن علمه لخصائص البيئة سطحية وغير متعمقة ثم إنه اذا غادر أرضه أو مات فقدت تجربته ومعرفته الخاصة بهذه البقعة من الارض الى الابد . وتعين الدراسة العصرية للبيئة على المحافظة على كل المعلومات التي تتعلق بالارض أن كانت آتية من المهندس الباحث أو صاحب الارض كما تعين على التعمق في معرفة البيئة المعنية جيلا بعد جيل وادراك التحولات والتغييرات التي تصيبها ويمكن ضبط الطريقة الزراعية الانجح والاضمن لسلامة الأرض من ناحية وتحسين انتاجها من ناحية أخرى وذلك حسب كل خاصية ترابية أو كل تحول وتغير يحل بالطبيعة .

وبصفة شاملة تحتوى الدراسة الدقيقة للتربة على :

ـ لمحة على المناخ المحلى ومعدل الامطار

ـ دراسة تركيب التربة وخاصياتها وأشكالها (حسب التصنيف التونسى)

ـ ضبط الانواع الزراعية حبوبا أو علفا ـ أو شجرا مثمرا ولكل نوع من الزراعة طرق فلاحية تخص تحضير الأرض والاسمدة وأسلوب البذور والغراسة وغيرها

ـ تحديد الطاقات الانتاجية حسب كل نوع من الزراعات .

وتعين كل هذه المعطيات بصفة عامة الفلاح على تقدير استثماراته وأرباحه والموازنة بين التمويل والانتاج المتوقع . فيكون قادما على نشاط فلاحى مضبوط من الناحية الفنية والاقتصادية . ويستطيع عندئذ أن يتحكم فى انتاجه الزراعى كما يتحكم الصانع فى انتاجه الصناعى . ولكن للفلاحة معطيات كثيرة يصعب ادراكها كما أن تسييرها على النمط العصرى يتطلب مستوى من المعرفة لا نجده اليوم عند كل الفلاحين فى تونس كما هو الشأن فى سائر البلدان العربية النامية وذلك لتأخر التعليم والاساليب الدراسية فيها ولم يعط التعليم كثيرا من الاهمية الى علم البيئة فى العالم العربى بصفة عامة .

3) فى المشاريع الغابية

ـ فى ميدان الغراسات والتشجير وفلاحة الغابات

لقد مكنت البحوث والدراسات التى أجريت فى نطاق قسم دراسة التربة والبيئة الغابية التابع للمعهد القومى للبحوث الغابية من ضبط طريقة خاصة لتحليل البيئات النباتية فى المناطق الشمالية للبلاد ومن رسم خرائط البيئة النباتية والترابية على سلم 1/50.000 ومن تحديد الاراضى الصالحة للتشجير من جهة والاراضى الصالحة للمرعى وانتاج العلف من جهة أخرى ـ وبعد دراسة البيئة أمكن تخطيط أعمال تنمية المراعى والغابات فى جهة المقعد (معتمدية سجنان خاصة) ونجحت عملية تربية الماشية بالاراضى المحددة للمرعى بالاراضى المرنية (خليط من الجير والطفل) ويشرف على ادارة هذه المراعى الآن ديوان تربية الماشية الذى أحيا حوالى 5.000 هكتارا من الاراضى المخصصة للمرعى حتى أن الذى يزور الآن جهة سجنان يخيل اليه عندما يشاهد المراعى الخضراء كأنه فى وسط هضاب بسويسرا .

ولكن دراسة البيئة للمناطق الغابية والاراضى الهامشية الضعيفة التى تراقبها ادارة الغابات لم تبلغ الدقة الكافية فى المناطق الأخرى وخاصة فى الوسط والجنوب الغربى حيث أن المشاريع التى تخص التشجير وتحسين

المراعي واشغال المحافظة على التربة والمياه مازالت تنتظر من يقوم بدراسة البيئة على شكل أوسع ورسم خرائط التربة والموقع على سلم أكبر لا يتعدى 20.000/1 و 10.000/1 وعلى سبيل المثال نذكر أن الدراسة التى أعدت لمشروع حماية حوض سد نبهانة أعدت على سلم يبلغ 200.000/1 وتهدف هذه الدراسة الى تحديد الاراضى المنجرفة وتوجيه الاعمال لمقاومة الانجراف حسب المناطق والاولويات ولكن انجاز الاعمال الغابية المختلفة (تشجير وتحسين المراعى والمحافظة على التربة والمياه) تتطلب دراسات أدق ورسم خرائط البيئة على سلم يتطلب دراسات اضافية تخص :

- دراسة البيئة والتربة على سلم كبير (10.000/1) .
- احصاء الماشية مع عدد السكان ومختلف الانتاج الزراعى
- احصاء حاجيات السكان من غذاء ومسكن ووسائل تعليم وصحة

وبدأ يظهر حسب الدراسات المختلفة التى أقيمت بالمعهد القومى للبحوث الغابية وادارة الغابات أن أهم مشكل بالنسبة للوسط التونسى هو **تنظيم تربية الماشية وتحسين أسلوبه** مع وضع حد للتوسع فى حراثة الارض والزراعات الكبرى للحبوب التى لا تتماشى مع واجب حماية الأرض من الانجراف والهلاك وفقدان خصوبتها . ولا يتسع هذا المقال لبسط مشكل تنظيم المراعى الهامشية ولكن نشير الى أنه يتعلق بحوالى 5 ملايين من الهكتارات فى الاراضى الهامشية وبقى تنظيم المرعى أهم مشكل فلاحى وطبيعى بالنسبة للبلاد ، واذا حاول التونسيون اليوم وضع حد له ربما وصلوا الى تحسين انتاج المرعى بمرتين أو ثلاث مرات على أقل تقدير بعد عشر أو عشرين سنة وكذلك يوضع حد لانجراف التربة ثم يمكن خزن كثير من المياه السائلة وراء السدود .

ولكن مشكل المراعى الهامشية يظهر في بلدان جنوب البحر الابيض المتوسط عامة ولا تستطيع هذه البلدان أن تحله الا بتحقيق التوازن بين المحافظة على الموارد الطبيعية واستغلالها استغلالا حكيما بالقضاء على المرعى الجائر وبتطوير البحث العلمى الخاص بالاراضى الجبلية والمراعى والمناطق الريفية المختلفة وتكوين فنيين مختصين مستعدين لفهم المشكل وحله بالطرق العلمية التى تعتمد على دراسة البيئات النباتية دراسة دقيقة بالاضافة الى الدراسات التى تتعلق بالتربة والحيوانات والعناصر البشرية التى يجب تطويرها فى هذه الجهات وتلبية حاجياتها الاساسية من غذاء ومسكن فى أقرب زمن ممكن وان لم يقع تدارك هذا الوضع فى زمن قريب فسيكبر مشكل النزوح الى المدن ويختل التوازن بين مختلف الجهات الترابية وتخسر بلادنا امكانيات هامة من الانتاج

العلفي وتفقد الارض خصوبتها وتضيع كميات كبيرة من الماء الصالح للحياة .

5) علـم البيئة ومقاومة التصحر :

يقودنا الحديث عن المراعي الهامشية والمناطق الريفية المختلفة الى الاشارة الى كونها من أهم الاسباب التي تعين على التصحر في شمال افريقيا (مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب) وقد اعتنى المؤتمر العالمي لمقاومة التصحر (نيروبي – سبتمبر – أكتوبر 1977) بالمراعي الهامشية قرب الصحاري وفي المناطق الجافة ووصى على تنظيمها كما اعتنى بالطرق الاخرى التي يمكن بها الحد من زحف الصحراء كوسائل التعليم وتوعية المواطنين واستغلال المياه الباطنية السطحية والتشجير والتعاون الجهوي وغيرها من الطرق التي رسمها المؤتمر في وثيقة معينة تخص **استراتيجية كاملة لمقاومة التصحر** ويحتل علم البيئة أهم منصب للتعريف بالتصحر ونعلم في تونس أن معهد المناطق الجافة الذي أقيم قبل أربع سنوات في مدنين أدى الى تكوينه الدراسات التي وقعت في ميدان معرفة البيئة النباتية في المناطق القاحلة مثل منطقة عقلة مرتبة ومنطقة الدويرات ومن بين أهداف هذا المعهد الاساسية هو استغلال هاتين المنطقتين على شكل أنموذجي عصري ينظم فيها المرعى الهامشي الصحراوي ومن أغراض هذا التنظيم أن تنتج الارض أكثر كمية من العلف وتبقى خصوبتها مرتفعة ولا تتعرى من العشب حتى يحفظها الكساء النباتي من عبث الرياح بها وزحف الرمال عليها . ويعتني هذا المعهد بجانب اصلاح المرعى والاراضي الزراعية بتكوين الاخصائيين الفنيين في المراعي الهامشية حتى يمكن تطبيق ما جاء في الدراسات ونسأل الله أن يوفق هذا المعهد في أعماله حتى يكفينا شر زحف الصحراء على الشمال التونسي والا تحل بنا الكوارث الطبيعية مثلما حلت بالبلدان الافريقية الواقعة في جنوب الصحراء الكبرى .

6) علـم البيئة وتركيـز الصناعات

لا بد لرجال التخطيط الصناعي أن يعلموا ولو الشيء القليل عن البيئات التي يركزون داخلها صناعاتهم حتى لا يرتكبوا أخطاء يصعب تفاديها بعد ظهورها . وحتى لا يبلغ الضرر الى مناطق هامة من حيث انتاجها الزراعي أو تربتها الخصبة أو مناخها أو عمرانها . وفي بعض الاحيان يكفي لمصنع واحد يصنع مواد كيمياوية أن ينشر مخلفات غازية أو سائلة سامة فتتسبب هذه المخلفات بعد زمن قصير أو طويل في القضاء على واحة أو فساد أرض زراعية أو ازعاج مجموعة من السكان ويمكن استغلال خريطة البيئات والمجتمعات النباتية التونسية لتفادي هذه الاغلاط على أساس أن تبسط هذه الدراسات وتبلغ الى مستوى الاخصائيين الذين يخططون للتصنيع والاقتصاد الوطني .

ويمكن للذين يعرفون محتوى دراسات البيئة أن يركزوا الصناعات الغذائية حسب المؤهلات الجهوية وامكانياتها الفلاحية والانواع الزراعية .

7) علم البيئة والتهيئة العمرانية :

تكونت في تونس منذ تسع سنوات مصلحة خاصة للتهيئة العمرانية تابعة لوزارة التجهيز والاسكان ووضعت خرائط وبرامج للتهيئة العمرانية لعدة مدن كبيرة في الجمهورية التونسية وتحاول هذه المصلحة أقصى جهدها استغلال كل المعلومات والدراسات التي تتعلق بالتراب التونسي مثل ما هو واقع داخل دائرة تونس العاصمة العمرانية ودائرة صفاقس ويمكن استغلال علم البيئة أحسن استغلال لفائدة التهيئة العمرانية قصد معرفة خصائص التربة والارض لتركيز البناءات من جهة ووضع المساحات الخضراء التي يحتاج السكان اليها للترفيه والتهوئة من جهة أخرى ولكن عدد الاخصائيين في علم البيئة غير كاف لتسديد كل الحاجيات ويمكن تفادي هذا النقص عن طريقة التربية والتعليم والتكوين الخاص بالبيئة .

8) علم البيئة والتربية والتعليم :

لاشك أن التربية والتعليم في البلاد لهما الدور الاساسي لتحسيس الشبان ورجال المستقبل حول بيئة البلاد ومحيطها الطبيعي ويكون علم البيئة يحتل منصبا هاما للتعرف على خصائص طبيعة البلاد ويمكن استغلال هذه الخصائص على أجمل وجه ويبقى مشكل سلامة المحيط الطبيعي والمحافظة على الموارد الطبيعية مبسوطا الى الابد في مستوى التعليم وهو مرتبط أساسا بسلامة المجتمع البشري وصحته .

ولكن علم البيئة كما قلنا يظهر صعبا ومعقدا ويجب وضع أسلوب أو منهاج تدريسي خاص به يجلب التلميذ ويوقظ احساسه حتى لا ينفر من الطبيعة ويبعد عنها ولاجل ذلك يجب أن يتعاون رجال التعليم في المراحل الابتدائية والثانوية مع الاخصائيين في علم البيئة قصد ضبط أسلوب التعليم واستغلال الدراسات التي أشرنا اليها في علم البيئة أحسن استغلال : وحسب نظري يمكن أن تعطى للتلميذ في المرحلة الابتدائية للاقسام الثانوية الاولى معلومات عن العناصر الطبيعية الاساسية التونسية في الماء والارض والتربة والنبات والحيوان وتقدم بصفة سهلة وشكل جلاب الى التلميذ ثم في قسم من الاقسام الثانوية (القسم

الخامس والسادس) تعرض هذه العناصر الطبيعية فى شكل شامل أو نظام كامل يمكن تصويره ككرة أو كعجلة تتحرك وهى الطبيعية وتتطور داخلها هذه العناصر والاشياء الطبيعية مع اتصال بعضها ببعض والتفاعلات الحيوية التى تحدث بينها ويتماشى هذا الاسلوب مع الاسلوب العصرى للرياضيات الذى يعتنى بالمجموعات وربما بالغ فى الاعتناء بها دون المفردات ـ ولكن يجب أن يدرك التلميذ أن المجموعة الطبيعية أو أن النظام الطبيعى لا يختلف فى الواقع على أى نظام آخر يظهر ككل موحد ومنظم حسب قوانين لا ندركها كلها ويحاول العلم ادراكها وفهمها ـ وكما قال «بيارقراسى»: النظام موجود في الطبيعة ولكن علمنا ما زال ضعيفا لكى يدرك جميع القوانين والروابط التى تتسبب فى هذا النظام » فالفوضى ليست فى الطبيعة ولكن فى أنفسنا وفى عقولنا التى ما زالت ضعيفة لكى تدرك كل أسرار النظام الطبيعى وكل ما خلق الله فى الكون .

وهنا نرى أيضا أن تعليم البيئة والعلوم الطبيعية تعين على محبة البلاد والتعلق بها كما أنها تنمى حب الاطلاع وتحدث التساؤلات عن سبب تكوين الانظمة الطبيعية ولا نبالغ اذا قلنا : إن دراسة البيئة الطبيعية قريبة من مناهج التربية الاسلامية التى تحث على التفكير في خلق الكون والارض وتهدف الى زرع خشية الله الخالق المنظم ومحبته في النفس. وقد قلنا في مناسبات عديدة : إنه على رجال التعليم فى علم الطبيعة أن يبادروا باستعمال كل الدراسات التى انجزت فى علم البيئة فى تونس وسيجدون أخصائيين وفنيين مستعدين للتعاون معهم لتبسيط هذه الدراسات حتى يمكن تفادى النقص الذى حصل لنا فى بلادنا من جراء تعليم وتربية أجبرنا على اتباعها المستعمر أيام الاستعمار فلم يعطنا الا قليلا من المعلومات عن بلادنا وعن أرضنا وسكانها وهوائها ومائها وتربتها وحيوانها ومواطنيها وعناصر أخرى كثيرة يجب أن نعرفها لأجل المحافظة على سلامة بلادنا ومحيطها الطبيعى .

الخاتمـــة :

لقد أصبح علم البيئة من العلوم الاساسية الذى يعتمد عليها التخطيط فى كل الميادين التى تتعلق بتنمية الاقتصاد والمجتمع مثل الفلاحة والصناعة والتجارة والصحة والمواصلات والثقافة والتعليم وغيرها من الميادين المتصلة بالنشاط الاجتماعى والاقتصادى والعمران ـ والتخطيط الذى لا يعتمد على البيئة تخطيط أعرج يمكن له أن يتعطب وأن يسقط فى مسيرته لتحقيق الاهداف التى رسمها ـ فاذا كان التخطيط يرمى أساسا الى تحسين موارد الرزق والعيش بالنسبة

لكل فرد من أفراد الأمة فلا بد من معرفة البيئة معرفة دقيقة لتركيز الاعمال الانمائية وتحديد تأثيرها حتى يقع تفادى أخطار هذه التأثيرات التى يمكن أن تحدث مشاكل يصعب علاجها اذا حلت بعد فوات الاوان وهي تكلف أموالا كبيرة لارجاع الامور الى نصابها الاول الطبيعي . نسأل الله أن يوفقنا الى علم نافع وأن يقوى فينا محبة بلادنا ومعرفة خصائص طبيعتها وبيئتها حتى تبقى قوية سالمة من كل عيب ونقص وتنتج ما يلذ من غذاء نافع لأبنائها . وتحقق العيش الكريم لمن أراد أن يقضى أيام حياته فيها .

محمد الهاشمي حمزه

ملحـــق

المؤلفات العلمية فى البيئة التونسية :

أولا : الدراسات التى تخص البيئات النباتية :

1 ــ **خريطة البيئة والمجتمعات النباتية لشمال تونس**

بمشاركة جمع من الاساتذة والبحاثين التابعين لمراكز **دراسة المجتمعات** النباتية والبيئة بمونبولية (Montepellier) وعلى **رأسهم الاستاذ** أمبرجى (Emberger) (1967) .

2 ــ **نبات السباسب التونسية للهوريو** (1966) (Le Houréou)
ولنفس الباحث عدة مؤلفات تخص البيئات النباتية فى الجنوب التونسى منذ عام 1959 .

3 ــ **مشاركة فى دراسة النبات فى الوسط التونسى للون** (1954) (Long)

4 ــ **دراسة البيئة ومشاكل استغلال الارض وتهيئتها** بغابات الصنوبر الحلبى بجهة القصرين (الوسط التونسى) للدكتور المهندس : عبد المجيد الحمرونى .

5 ــ **هناك عدة دراسات جهوية قام بها عدة بحاثين** أجانب مثل شنونبرجى (Shoenenberger) فى ميدان الغابات والسيدة **بوتى آلا بوتيت** (Potier à la petite) **ونوفيكوف** (Novikof) **ولاب** (Lab) **وقوسين** (Gaussin) **وقونو** (Gounot)

ثانيا : الدراسات التى تخص المناخ التونسى والمناخات والارصاد الجهوية :

1) مناخ تونس الوسطى لبالدى (Baldy)

2) دراسات عديدة تابعة لمصلحة الارصاد الجهوية بتونس والانتاج الفلاحى ودراسة أخرى حول المناخات الصغيرة الموجودة فى واحات قابس .

ثالثا : الدراسات التابعة لمصلحة التربة بوزارة الفلاحة : وهى دراسات تتعلق بالجهات المختلفة التونسية وقام اختصاصيون أجانب وتونسيون لابراز خاصيات التربة وقابليتها للأنواع الزراعية حسب طاقتها وتركيبها وأشكالها التى يعين على ضبطها علم التربة الأرضية مع وضع خرائط لصلوحية جميع أصناف الترب .

وقد نشرت مصلحة التربة أخيرا فى نشريتها الخاصة عدد 8 دراستين حول (أولا) ـ خريطة امكانية التصحر ـ فى الوسط والجنوب التونسى

(ثانيا) خريطة الجهات التى وقعت فيها أشغال لمقاومة التصحر .
ونذكر أهم الدراسات التى تخص الانجراف والجيومولوجيا (تغيير شكل الارض)

- خريطة الانجراف بمساقط واد زرود وواد مرق الليل على أساس دراسة الصور الجوية للسيد أحمد السوسى .

- الوسط الجيوفولجى التابع الرابع (تاريخ الارض) والانجراف فى جبلين متوسطين فى جهة تونس وأسفلها (جبل لجم وجبل ناصرين) للسيدة سلمى

- المشاكل المطروحة لتأويل الصور والمعطيات القياسية لـ «لاندسات» (Landsat) فى الجنوب التونسى لـ « لـفـلـوك » و « بنتانيى » (Lefloch et Pontanier)

- حوض واد مليان المتوسط ـ لبلعيد ـ

- شروط التوازن أو عدم التوازن بين بيئات مختلفة فى جبل سمامة وأسفله للهنتاتى

- دراسة أنواع الانجراف على أساس ضبط الاقسام الترابية والشكلية المختلفة فى واد حجل وذلك على سلم كبير لعلى حمزة .

ونشير الى أن مصلحة التربة بوزارة الفلاحة تقوم الآن بوضع خريطة لموارد التربة التونسية على سلم I/200.00 وستكون هذه الدراسة دراسة اجمالية وسوف تكون تكملة لخريطة البيئات النباتية .

رابعا : دراسات تتعلق بالبيئات الغابية :

I) دروس فى البيئة الغابية ـ تعطى فى نطاق التعليم العالى الفلاحى والجامعى (II3 صفحة) لشمنونبرجى (Shoenenberger)

2) أكولوجيا وعوامل البيئة لمعهد التشجير فى تونس (I968)

3) دراسات متعددة أخرى قام بها بحاثون أجانب مثل ديمانش(Dimanche) وشنونبرجى وبحاثون تونسيون مثل محمد الهادى العونى ـ وحفصة وقداس .

4) دراسة المياه بالنسبة لثلاثة مساقط مائية فى جوقار للمهندس الهادى الحذرى (I976) .

يا دنيا عندي أمل...

شعر : أبي وجدان

أمل .. ولولاه لما شجر شيخ جبلا حصيبا ..
لما ترقب اعمى انفجار الشمس من كوة فجر جديد ..
وبين الامل والياس لفتة خائف يجرى مع الايام فى اتجاه الارض ..
فما اجدرك بالخلود ! يا املا يؤسس بروج الحياة ..

1 ـ لحظات التأرجح المؤسس ..

أملٌ .. وأفتحهُ نَوافِذَ للهروب من الهروب ولا ابالى .٢
أمل يؤسِّسني كَـأفْقٍ شاسعٍ الجبهات ..
مزروعًا ثرياتٍ تذكِّرني عراجينَ الّلآلِـى :
الشمسُ تنقفُ مِنْ حُضُور الأفقِ .:
مثلَ فراخ نسْـرٍ غاشمٍ سَـكَنَ الأعالى ..
كأس الفضاء يشقُّها النَّسْـر ارتفـاعـًا ..
ذَاهِبًا فيِ الضوء ، يرجعُ فىِ الظِّلالِ ..
ألوانُ طيف الشمس تنحت فيِ جَناحِ النَّسْرِ ..
أقواسًا تَطَايرُ بـالنِّبالِ .

وعلى سفائنَ مِنْ شُعَاعٍ ..
ها أنا كالوَهم أسبحُ فوقَ أجنحة اللَّيالي ..
الليلُ يزْرَعُني نـجومـا .. والنجومُ تبَرَّجَتْ ..
لم يبقَ شيءٌ من همومي مـا بـدَا لِي ..
الليْلُ صمتهُ عدسةٌ فيها أمجْهرُ بعضَ شيءٍ
كلَّ شيءٍ في تبرُّجهِ جَميلٌ ..
بَلْ وزادَ عَلَى الجمالِ ..!
ماذا أرَى ؟ ملكوتَ حلم مستحيلٍ ..
كيفما أغشاهُ ..
يغشاني التألّقُ بالتألّقِ والجلالِ ..
تتأرجحُ اللحظاتُ بي ، فكأنّني ..
دنيا معلقةٌ تهاجمُها المياهُ ..
من الوراء مع الأمام ، مِنَ اليمين مَعَ الشِّمالِ ..
دنيا .. وتخرجُ مِنْ مَجَالِ الجَاذبيّة ، واستوتْ
في لوْلَبٍ والسَّقْفُ .. مشدودٌ ببعض حبالٍ ..
السَّقفُ علّقه إلـهُ الخمرِ ..
في حبلٍ من المطّاط .. آهٍ .. لَوْ يصَابُ الحبلُ هذا بانْحلالٍ !
السقف حين تحركت جبهاتُه في حاتم التكوينِ
خيِّل لي كأنَّ خيولَ كلَّ الأرض نافرةتهاجمني
بفرسان شـدادٍ لاكتساحِ خيالي .
الحتمُ إزميلٌ يهندسني وجودا راسخا ..
ولـكنْ أهندسُه الوجودُ كما حَلا لي !

2 ـ برد الاحتمال مؤقت ..

أنا نَافِرٌ حطّ الهلالُ على هـروبي رحلَه ..
وانا حططت على الهلال رحـالي ..

كسفينةٍ مسكونةٍ حطّ الرّحالَ على شفاها رائدٌ متهوّرٌ ..
فـأمـالَ بي طرفَ الهلالِ .
سيّان بيني والهلالِ بنقصه .! فاذا اكتملنا ..
نبدأ النقصانَ فورَ الإكتمالِ .
النّقصُ بعضُ كمالنا .. النقصانُ بدءٌ للكمالِ ،
وصائبٌ لو أنّني شبّهتُني بـبلال .
فإذا الكمالُ وضدّه لُـغزانِ ..
يقتسمان وُجداني بغير جِدالِ .
وهتكتُ قفلَيهما ، فجاء الهتكُ يُدخلني ..
الى اللغز المقسّم بالكمال .
قُسِمَ المحالُ ، وها رأيته نازكًا ..
صلّى امامي راكعًا ..
ما كنتُ أحسبُ أنْ يُحيط بهِ مجالي .
ماكنتُ أحْسَبُني ـ أنا المحدودُ ـ أنْ أقْوَى
على جمعي التّشتُّتَ في المُحالِ .
حتى اعتصرتُ من الخلوص تَوَحّدًا ..
فالشكلُ والمعنىَ ، قد اتّحدا بروحي ..
ضَاعَ مبدى الإنفصالِ !

الجمعُ بين تشتُّتي وتلاحُمي
وجهان في مرآة هذا الجَمْع .. وجهٌ كاملُ القسمات ..
أصبحَ شامخًا ، جَبَلاً ويهزأ بالجبال ..!
وجهٌ مـــلامحهُ تَخَاَلَّ بـــعضُها بعضا ..
كما تعتو الريـاحُ على الـرقيـــقِ من الرمـــالِ ..!

* * *

3 ـ **امل بلا جدران ، لن يزول .**

لولاَ السفـوحُ الصّامـــداتُ ..
بأسفلِ الجبل المكـلّل في شموخِ السَّفحِ بالقمم العوالِي ...
ما كنتُ أبنِي برجَ بابل في معابر كَانَ..كَانَ ..
وَكانَ أُسسَّها البقـــاءُ على الزوالِ .
ما اعتلّ هذا البرجُ في غَبْشِ انْبثاقــهِ خاطرًا .
في الـــذهن يزهو باحتلالِي .
ما اعتلّ هذا البرجُ قبلَ سقوطــه في الشكلِ ..
مثلَ الـروح تسقطُ في وعـــاء الإبْتِذَالِ ..
واليكَ ، حينَ تشكَّلَتْ جدرانـه أسرعتُ أقسمُ :
إنَّ هذا البرجَ اصبحَ لا محالةَ صائرا للاعتلالِ .
فلْنبقَ يا أملِي بلا جدرانَ ، إنّ الفاسَ تهدمُ كائنًا ..
حتّى ولو كانَ انْبنَى من ذاتـه عبر التّوالِي .
فلْنبقَ يا أملِي ، خيوطُ الضوء تنجسُنَا ...
ومَنْ يُنْسَجْ بضوءٍ ، هل يخافُ من المآلِ ؟!

4 ـ الهدم والحفر وبينهما الخلـــود ..

زُرني إلى مـا شئتَ ـ هــادمَ لذّتي ـ

لنْ تهدمَ الأسسَ المُقامةَ كالنّموذج للمعالي..

الهـَدمُ يعملُ في الجدار ، وإنما لنْ يستطيعَ الضربَ بي أسُسًا

تحمَّلت ارتفاعَ البرج صامـدةَ المِـثالِ .

الهـَدمُ يضربُ في الجدارِ ..

سنــابلُ الأعمــارِ ..

إنْ لمْ تنحصدْ في الصيف تدرسْ بالنعالِ

فارحمْ سنابلَنــا ـ أيا أملي ـ النعالُ تواطأتْ ..

والحاصدُ المحصودُ دومـا في اقْتِتالِ .

ما دام فأسُ الهـدم عمَّقَها سوانـا بيننـا ..

بيَدِ الوضوح وعكسه ،

حتّمَ علينا أنْ نُعدَّ إلى النّضَـالِ .

لا الهدمُ يفعلُ في الـــوجـــودِ ..

معابرًا للخلد ، كلا !

إنما بالحفر نَنْزلُ للخلودِ

هُوَ النزولُ ـ العمقُ بــدءٌ للنزالِ .

انْزلْ الى الأرض الحبيبة إنها سكنتُكَ ..

كمْ سكنَ الجوابُ الصُّلْبُ في صُلْب السُّؤَالِ !؟

5 ـ دفء اليقين الدائـم ..

إياكِ يا دنيا من الميلانِ عنْ أمـلِ

يجدّد في الجداولِ ميلهَا للبحر تزحفُ لِلْوِصال ..

البحرُ أبعدُ ما يكون عَنِ الجداولِ ، إنّما بالميلِ ..

تَلْتَحِمُ الجداولُ في المسافاتِ الطّوال ..

فعلى انشغال البحرِ يناسبُ المسَاءُ ..

جُزُرًا من الأملِ الشتاتِ ، الريحُ زَحْزَحَهَا حيـالي .

جُزُرٌ كطوفانِ العيونِ السّودِ ، والأمواجُ تُرْمِشُها ..

وتـوغلُ في الحوارِ الى الجدال ..

أمواجُ هذا العمرِ ـ يا دنيـا ـ تجادلنا لنُسْلِمَ دفْأنـا للبردِ ..

وآه .. وآ .. على حرِّ الرّجالِ ! !

دنيا رأيتُكِ تدْخُلينَ معي وزندك في ذراعي ..

مـرقصَ الأوجـاعِ ..

كيفَ الرقصُ صارَ على النِّصَـالِ .؟

دنيا رأيتُكِ تدخُلينَ معي لدفءِ العمرِ ، لكنّي ..

رأيتُكِ تَخرجينَ وأنتِ طيفٌ مِنْ خلالِي ..

إنّي لأخْرجُ منكِ ـ يا دنيـا ـ ولي أملٌ يُؤَسِّسُنِي ..

وكَمْ حرّ اليقينِ مضَى ببَرْدِ الإحْتِمَـالِ ! !

ابـو وجـدان

ـ الوردية ـ

هل يمكن اعتبار «طوق الحمامة» كتاب أدب ؟

بقلم : المنصف الزغل

لقد اتفق اكثر النقاد على ان « طوق الحمامة » لابن حزم اهم ما ألف فـي الحب بالعربية فى العصور القديمة ويقرر أحمد أمين (1) أن ابن حـزم « من أول الناس وأسبقهم الى قيد منازع الحب ، وان كان قد سبقه محمد بن داود الظاهرى فى كتابه « الزهـرة » ولكن ابن حزم تفوق عليه وكان كتابـه طوق الحمامة أبرع وأثمن وأوفى » .

ولقد اعتـاد الناس ان يروا فـي « طوق الحمامة » مؤلفـا فى الحب وكفى ولكن أخذت الانظار تتجه أخيـرا الى اعتبار « الطوق » كتابـا أدبيا اكثر منه علميا يحلل فيه صاحبه عاطفة الحب تحليلا دقيقا ، وبذلك يضاف الى سلسلة كتب الأدب العربـي ، ولعل أهـم من ألح علـى هـذا المعنـى المستشرقـة « نادى توميش » (Nada Tomiche) (2) اذ هـى تعتقد ان ابن حزم ألـف « الطوق » على طريقة الادباء .

لذلك يجدر بنا ان نتسـاءل : « فى اى صورة والى اى حـد يمكـن اعتبار طوق الحمامة كتاب أدب ؟ » .

هذا مـا سنحاول بيانه فيما يلـى فنستعرض فى مرحلـة اولى الخصائص الادبية الموجودة فى كتـاب ابن حـزم والمتعـارف على انها من أسس الادب ، ونتبين فى مرحلة ثانية حدود الاعتبـار اذ يبـدو ان « الطـوق » وان كانت

(1) ظهر الاسلام ج 3 ص 214

(2) مقدمة كتاب « الاخلاق والسيرة » لابن حزم

له صلة متينة بالادب فانه يتميز بأمور تكاد تخرجه عن نطاق الادب التقليدى ويحسن قبل ذلك أن تحدد بايجاز مفهوم الادب المعنى فى هذا الصدد حتى يكون لنا بذلك شبه مقاييس يتسنى لنا به تبين مدى الخصائص الادبية لطوق الحمامة .

وطبيعى ان الخوض فى حد الأدب أمر شائك لان الآراء اختلفت فيه ولكن الامر يصبح هينا اذا اكتفينا بالاشارة الى ان مفهوم الادب عند العرب قد تحدد منذ نهاية القرن الثانى للهجرة على يد الجاحظ فقد كان مفهوم الادب غامضا الى ان بلوره صاحب « البيان والتبيين » « والحيوان » فكان الجاحظ بذلك أول أديب عربى بالمعنى المتعارف عليه اذ أسس شبه مدرسة أدبية وكان الجاحظ معلم الادب الاول ، حاول المؤلفون فيما بعد اقتفاء أثره ، وهكذا أصبح الادب هو الاعتناء بالمقطوعات الشعرية والنوادر والاخبار والامثال وجمعها فى الكتب للافادة والامتاع .

ولعل من أهم خصائص هذا الادب هو سهولة الانتقال من موضوع الى آخر ، من الشعر الى النثر الى الطرائف والنوادر والاخبار ، ويكون ذلك الانتقال بدون رابط ظاهر قد يكون من شأنه ادخال الملل على القارىء ، اذ غاية الادب الاساسية الافادة مع الامتاع وعدم الاضجار .

وهكذا فان الناس عندما يثنون على الادب فانما يقصدون هذا النوع من التأليف الذى يأخذ من كل شىء بطرف من ذلك « البيان والتبيين » للجاحظ والعقد الفريد لابن عبد ربه « وزهر الآداب » لابراهيم الحصرى القيروانى فهل كتاب « طوق الحمامة » على هذا النحو من كتب الادب وهل يشمل فى معظمه خصائص الادب بهذا المعنى .

نجد فى كتاب طوق الحمامة أوجه شبه كثيرة بينه وبين كتب الادب ففى « الطوق » نصيب وافر من المادة الادبية من ذلك الاشعار الكثيرة فى شتى مواضيع الحب ، وفيه من النوادر والاخبار الكثير وجلها اخبار سمعها المؤلف مباشرة من رواة عاشوها أو أخبار عاش حوادثها بنفسه ... او تخص اشخاصا عرفهم أو أخبره الثقاة عنهم وهم إما ممن لهم مكانة مرموقة فى المجتمع السياسى والادبى او من الناس العاديين مثل الجوارى ..

والقصص من مادة الادب أيضا وقد أورد منها ابن حزم نصيبا فى رسالته فانظر قصة الشاعر الرمادى فى « باب من أحب من نظرة واحدة » وقل أى شىء يكون الادب ان لم يكن هذا اللون من القصص ؟ .

ولكتب الادب طرائق ونزعات أدبية استوفى ابن حزم البعض منها فى « الطوق » من ذلك اختيار المادة ، فانك لا ترى فى « الطوق » شيئا من الخرافات السمجة والاوهام المستبشعة وما تظرف به الشعراء من ادعاء عشق الحيوان ووضعهم الشعر على لسان العشاق من الحمير .. وابن حزم يعلل تركه هذه السخافات فيقول : « ودعني من أخبار الاعراب والمتقدمين فسبيلهم غير سبلنا وقد كثرت عنهم الاخبار وما مذهبي أن انضي مطية سواي ولا ان اتحلى بحلى مستعار ... » وما أشبه هذا القول بقول ابراهيم الحصري فى مقدمة كتابه الأدبي « زهر الآداب » اذ قال : « وبعد فهذا كتاب اخترت فيه قطعة كافية من البلاغات فى الشعر والخبر والفصول والفقر مما حسن لفظه ومعناه ... ولم يكن شاردا حوشيا ولا ساقطا سوقيا ... ولم اذهب فى هذا الاختيار الى مطولات الاخبار كاحاديث صعصعة بن صحوان وخالد بن صفوان ونظائرهما اذ كانت هذه أجمل لفظا وأسهل حفظا » .

وابن حزم ، على طريقة الادباء أيضا لا يورد فى ابواب كتابة الاشعار والاخبار والنوادر الا بالمناسبة ، فاذا أفادك بانه كثيرا ما يقع المرء فى الحب من نظرة واحدة فانه يورد لك خبرا فى ذلك طريفا وكثيرا ما يتحدث عن نفسه وفى ذلك من الطرافة ما فيه .

ولئن كان للادب مادة معروفة نسبيا أتى ابن حزم فى «الطوق» بالكثير منها فان للتأليف فى الادب طرائق وان له غايات . وهذه الطرائق سنها أيضا الجاحظ معلم الادب الاول من ذلك طريقته المشهورة : مزج الجد بالهزل للترفيه عن القارىء واذهاب الملل عنه ، والطوق مؤلف على أساس هذه الطريقة ذلك اننا نعتبر الاخبار والنوادر حتى الاشعار نوعا من الهزل أتى به للترفيه اذا ما قارناه بالتعريفات والتحليلات المجردة التى يبدأ بها الكاتب أبواب رسالته فهو مثلا بعد ان يعرف الحب ذلك التعريف الفلسفى المجرد مستشهدا بأقوال الفلاسفة وبالقرآن والحديث يأتينا بخبر يرفه به عنا ويخرجنا من ذلك الجو العلمي « الثقيل » فيقول : « ولقد علمت فتى من بعض معارفي وقد وحل فى الحب وتورط فى حبائله واضر به الوجد ... » الى ان يورد بيتا شعريا جميلا :

« واستلذ بلائي فيك يا أملي ولست عنك مدى الايام أنصرف »

وللشعر سلطان على القلوب فهو يستهوى النفوس !

والتنويع من خصائص الادب وابن حزم استوفى هذه الخاصية فى «الطوق» اذ اخبار المحبين مختلفة وكيفيات علوق القلوب بعضها ببعض عديدة .

وأما الاستطراد فى طوق الحمامة فيمكن لمسه بسهولة ، فما الاتيان بالخبر تلو الخبر والابيات من الشعر تلو الاخرى الا مظهر من هذه الظاهرة الادبية التقليدية ... ولعل تطرقه ايضا الى الحديث عن الامور السياسية والاجتماعية فى عصره من مظاهر هذا الاستطراد فى طوق الحمامة ، اذ نجد مثلا حديثا عن هجوم البربر على قرطبة وتخريبها وعن ما لحقه واهله من جراء ذلك من البلاء ... والاشارات التاريخية التى تكون بمثابة الاستطراد هى من صميم الادب التقليدى ...

ونشأ عن هذا الاستطراد انعدام التنظيم المحكم فى التأليف . ولكن يحسن الاحتراز فى هذا الشأن اذ كانى بابن حزم مع ذلك قد أحكم ترتيب رسالته فهو يتطور بالقارىء من وصف الحب واعراضه الى ان يصل به الى آفات الحب فى ترتيب شبه منطقى .

ولكن الادب أيضا اذا كان يراعى انعدام الترتيب المنطقى الممل فانه يراعى مع ذلك اتباع بعض المحاور والابواب وطوق الحمامة يشتمل على أبواب واضحة وضعها المؤلف بنفسه .

ومن خصائص الادب حسن الاسلوب والاعتناء بالشكل بقدر العناية بالمعنى وفى طوق الحمامة عناية بالاسلوب ملحوظة : فانظر كيف يختار ابن حزم ألفاظه وكيف يستعمل الجمل المزدوجة التى تحدث نغمة لذيذة .. يقول المؤلف فى باب علامات الحب (1) .

« وللحب علامات يقفوها الفطن ، ويهتدى اليها الذكى ، فأولها ادمان النظر والعين باب النفس الشارع ، وهى المنقبة عن سرائرها ، والمعربة عن بواطنها ، فترى الناظر لا يطرف ، يتنقل بتنقل المحبوب ، وينزوى بانزوائه ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس .. »

---

(1) طوق الحمامة طبعة برشاى ص 30 .

فانظر الى استعمالـه الاسلـوب الحسى مع الاتيان بالتشبيه الذى هو من أسس البلاغة .. والصور تتماشى فى كثير من الاحيان والغرض الذى يرمـى اليه الكاتب مثل قوله : « اضطراب الحبيب وتلجلجه عندما يتحدث » .

ولعل من أهم ما يبين اعتناء ابن حزم بالبلاغة والاسلوب تعليقه فى كتابـه على بعض الابيات التى يوردها من نظمه لتدعيم أقواله فى الحب (I) . « وقـع لى فى هذه الابيات تشبيـه شيئين بشيئيـن فى بيت واحد وتشبيه أربعـة أشياء فى بيـت واحد ، وكلاهما فى هذه القطعـة .. » والادب كمـا نعلم يهتم كثيرا بالناحية الشكلية اللفظية بقدر ما يهتم بالمعنـى ... ثم ان لابـن حزم براعة فى فن الرواية وايراد الاخبار وخذ لك مثالا عن ذلك قصـة الشاعـر الرمادى فى حديثه عن الحب من نظرة واحدة .

ودائما فى نفس السياق الادبى لنمعن النظر فى الغاية من كتاب « الطـوق » ولنتساءل هل غايته توافق غاية الادب عامة ؟

قد تكون غايـة ابن حزم مذهبيـة دينية ، هى التدليل بطوق الحمامة على ضعف الناحية العقلية فى الانسان وسرعة وقوعه فى الزيف والمؤلف بذلـك يعلـل دعوتـه المعروفة الى ابطـال القياس والتأويل بنـاء على ضعف العقل البشرى ودعوته ايضا الى المذهب الظاهرى... فهذه غاية ملحوظة فى الكتاب .

ولكن غاية الادب الاولى هى الافادة والامتاع ... : ومن منا يقرأ « الطوق » ولا يجد فيه الفائدة والمتعة ؟ اننـا نطلع فى « الطـوق » علـى اسرار النفس البشريـة وعلى نواح عديـدة من المجتمع الاندلسى فى عصر ابن حزم ، واما المتعة فان لم تجدها فى ذلك فانت لا شك واجدها فى النوادر والاخبار خاصة أن ابن حـزم قصاص بارع وأنت عندمـا تقـارن قصـة الشـاعـر الرمـادى (فى باب من أحب من نظرة واحدة) كما أوردها ابن حزم بنفس القصة التـى أوردها الحميدى فى « جـذوة المقتبس » لا يمكن الا ان تشعر بمـا لابن حزم من قدرة فائقة فى فن الرواية وايراد الاخبار ، فهو قبـل أن يـورد لك ذلك يحدث جوا يهيئك به له ، ثم يعمـد فى الـرواية الى الاتيـان بالحوار فتكون القصة كلها حيوية .

وأخيرا فالادب يعلم الاخـلاق وحسن التصرف فى المجتمع وطـلاوة الحديث فى المجالس ، ولك فى « الطوق » زاد دسم من الاخبار والشعر والعلم يؤهلك

(I) طوق الحمامة طبعة برشاى ص 40 .

لتكون متأدبا تحسن الحديث فى المجالس ، ثم انك تجد فى آخر الكتاب دعوة الى العفة وصون الاخلاق والتمسك بالدين .

كل هذا يدخل فى نطاق الادب بمعناه التقليدى استوفاه ابن حزم فى كتابه ولم نات بالامثلة والشواهد الا على سبيل التمثيل لا الحصر — فلا يمكن بعد هذا الا ان نعتبر طوق الحمامة كتاب أدب بالمعنى المعروف عندما نتحدث عن كتب الجاحظ والحصرى .

★ ★ ★

ولكن هل ان كتاب ابن حزم كتاب ادب « مائة بالمائة » ؟ الا يختلف عن كتب الادب المعروفة اختلافا بينا ؟ أليس فيه نزعات علمية فلسفية خالصة ؟ وخصائص ذاتية تميزه عن كتب الادب الاخرى ، وتكاد تخرجه عن نطاقها ؟ .

فالى أى حد اذن يمكن اعتبار « الطوق » كتاب ادب ؟

ان من يقرأ « طوق الحمامة » يلاحظ فيه منذ البداية الصبغة الجدلية العلمية والفلسفية ، فهو يكاد يكون كتاب علم متخصص فى موضوع واحد ، اذ هو مصنف فى موضوع معين هو « الحب » فنطاقه اذن ضيق مهما اتسع ، واين هذا من « الحيوان » أو « البيان والتبيين » أو « العقد الفريد » وقد جمعت هذه الكتب من « كل شىء شيئا » .

والصبغة الفلسفية واضحة خاصة فى تعريف الحب وابن حزم وان استشهد بالقرآن والحديث النبوى فهو متأثر بالفلسفة اليونانية ، فهو يستشهد اكثر من مرة بكلام بقراط ... « وبعض فلاسفة اليونان يذهبون الى ان الارواح كان لها قبل اتصالها بالاجسام وهبوطها من العالم العلوى ألفة وتمازج وحب فلما باشرت هياكلها من الاجساد كان لها من الحنين ونزوع بعضها الى بعض بقدر ما وجدته من شفافية الاجساد ورقتها ولطافتها ... » وقد تبنى ابن حزم هذه النظرية واجاد فى صوغها وتعليلها تعليلا علميا من شأنه أن يقنع القارىء كما أجاد معاصرة ابن سينا فى بسط هذه النظرية خاصة حين قال :

« هبطت اليك من المحل الارفع   ورقاء ذات تعزز وتمنع »

واقحام الفلسفة فى الكتاب واعتمادها لعرض النظرية لا يجرد الطوق من صبغته الادبية ولكن الاغراق فى الفلسفة وفى استعمال أساليبها الجدلية

أحيانا هما اللذان يخلان بالادب . فطوق الحمامة يصبح فى بعض الفصول كانه بعض كتب علم النفس الحديث لما فيه من تصوير النفس البشرية بضعفها وما فيه من مراعاة الناحية الجنسية فى الحب . يقول ابن حزم « ان من أسباب الطلاق عدم مراعاة الزوج لزوجه جنسيا » ، ويشرح ذلك شرحا صريحا : « ان الاعضاء الحساسة مسالك الى النفوس ومؤديات نحوها ، ثم يتحدث عما يسمى « بالتثبيت » (1) فى علم النفس ويفرد له بابا عنوانه « من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها » .

وابن حزم يلح على الناحية الدينية والاخلاقية فى كتابه ويرى ان من يبحث عن التسلية فى الحب ولا يرى فيه الا لهوا فانه لم يتخلص من العوارض الارضية ، كما يبين ان النفس البشرية لا تفرق بين الحقيقة والرمز اى الصورة ، اذ القنوع بالطيف دليل على عدم التفريق بين العرض والجوهر .

و «بالطوق» العديد من النصوص كانها جاءت لتدعم مذهبه الظاهرى بل هى تدافع عنه بأسلوب جدلي(2) فهو يبين ضعف النفس البشرية وتعلقها بالاوهام مما يؤثر فـى العقل واذن فلا يمكن ان نعتبر العقل قائدا الـى كشف الحقيقة وأحسن حل يراه ابن حزم هو الاعتماد على ظاهر الاشياء والتشدد فى التقيد بالنص كما هو دون السعى الى تأويله ، وفى هذا دعوة الـى ابطال القياس .. وكتاب يسرف فيه صاحبه أحيانا فـى الدقة العلمية ويـورد فيه مثل هذه الامور المجردة وبطريقة جافة أحيانا أيضا يمكن ان نلحقه بكتب الجاحظ فى الدفاع عن مذهب المعتزلة لا كتاب « البيـان والتبيين » او « الحيـوان » ويمكن ان نلحقه بكتب ابن حزم ذاته مثل « الفصل فى الملل والاهواء والنحل » و « الاحكام فى اصول الاحكام » .

ثم اننا اذا استثنينا بعض الاستطرادات فى التفاصيل فاننا نتبين ان « الطوق » محكم البناء مبوب الفصول ، فالمؤلف مثلا بعد ان يتحدث عن ماهية الحب وعن علاماته يورد أسباب نشأته وتطوره وتبلوره او زواله ثم يتحدث عن آثاره فى العاطفة والتفكير ثم عن سبل ايصاله ثم يتعرض الـى الصفات الجوهرية التـى بدونها لا يكون حب قبل ان يتطرق الى ذكر آفات الحب والمراحل التى يمر بها حتما ، فابن حزم بعد ان بين ماهية الحب قال « ولا بد لكل حب من سبب ليكون له اصلا وانا مبتدىء بأبعد ما يكون من

---

(1) مجلة « العربى » عدد 23 سبتمبر 1959 .
(2) انظر « باب من أحب من نظرة واحدة » .

أسبابه ليجرى الكلام على نسق وان يبدأ بالاسهـل والاهون » فثمة كما ترى تنظيم منطقـى مسطر منذ البدايـة ، يستمر عليه المؤلف الى نهاية الكتاب ، وهذا التنظيم المنطقى هـو من خصائص العلم والفلسفة وليس من خصائص الادب التقليدى .

ثـم ان الشعر الموجود فى « الطوق » محدود من حيث الكم وهو من نوع واحد وهـو لشاعـر واحد فـى الغالب مما يتبيـن معـه ان التنويع فـى هذا الكتاب محدود ، فالشعر الوارد فى « الطوق » يمكن لو جمع على حدة أن يكون ديوان شعر صغير لا كتاب أدب بالمعنى المعروف ، اذ الدواوين الشعريـة لا تعتبر كتب أدب وان كانت من مادة الادب ... ثم ان الاخبار والروايات الواردة فى « الطوق » تسير فى اتجاه واحد وهكذا فالتنويع فيها محدود أيضا .
كذلك الاسلوب ، يخلـو أحيانا من الصبغـة الادبية فيصبح أسلوبا علميا جافـا ...

* * *

كل هذه العوامل تجعلنا نعتبر ان « طوق الحمامة » ليس كتاب أدب خالص وانما هو كتاب أدب وعلم وفقـه ممزوج بشىء من الفلسفة ، وقد تغلب عليـه الصبغة الادبية لانه كله إمتاع وافادة ولاننا نرى فرقا كبيرا بينه وبين كتب ابن حزم « العلمية » مثل « الفصل فى الملل والاهواء والنحل » .

واذا امكن لنا أن نتحـدث عن نسبـة مائوية لما فـى « الطوق » من مـواد وأساليب غير أدبية فاننا نقرر بأنها ضئيلة . لان ما اورده ابن حزم فى كتابه عن الحب من جوانب علمية يعوزها أحيانا التدقيق وعمق التجربة وتعميمهـا لاستخلاص القواعد العامة الصالحة لكل زمان ومكان دون ان يغيب عن ذهننا مع ذلك طرافة ما جاء به ابن حزم فى هذا الموضوع وخاصة اخراجه بالشكل الذى أراده وطبعه بالطابع الشخصى وبالطابع الاندلسى عامة .

ويبقى ابن حزم فى « طوق الحمامة » **الاديب اللامع** المطلع على علوم عصره والمتشبع بالفلسفة ، والفقيـه الظاهرى الجلـى الملامح .. ويبقى « طـوق الحمامة » كتاب أدب يجد فيه القـارىء الفائدة والمتعة بعد كـد العمل وعناء الجهد ولعل فى تسمية الكتاب « بطوق الحمامة » ما يدل على اصالة ابن حزم فى عالم **الادب** .

المنصف الزغل

واستجابت الأقدار...

قصة : الناصر التومي

.. ما النجاح ، ما الاصرار ، ما الفائدة من كل هذا ما الفائدة .!؟

لقد صدمت بالنجاح وكأنها ما نجحت من قبل ، وصدمت بالنقص الحاصل في تكوينها الجسماني منذ كانت ورما ببطن امها ، وكأنها ولدت الساعة . قد يجهد المرء نفسه لتحقيق مآرب ، فاذا اسعفه التوفيق وابتسم له النجاح ، ظهرت نتوءات وأخاديد ما كان ليحسب لها حسابا ، فتحيل النجاح الى سراب .

كانت سنين طويلة ومريرة ، رافقها فيها العذاب كقدرها ، ينفث فيها الوهن والعجز ، وهو يملك اسلحة فتاكة ، يكفي ان تسقط لحظة واحدة فى حضن اليأس حتى ينقض عليها لاخماد انفاسها ، ولكنها كانت حريصة كل الحرص على تحقيق النصر على عجزها ، كلفها ذلك ما كلفها .

كانت فى اعوام طفولتها الاولى تزحف زحفا وهى لا تعى ما بها من نقص ، الكل يحومون حولها بفروع مستقيمة وكأنما شدوا للانتصاب شدا ، ساعة ما ينثنون ينثنون وساعة ما يسرعون يسرعون ، لا يعيقهم فى ذلك عائق ، فكانت ترى كل ذلك ، وتصدر منها حركات تلقائية فى محاكاة طبيعية ، فلا تحس الا بارتعاشة خفيفة من احدى قوائمها ، مصدرها العقل ، وما درت ان جهازها الرأسى لا قدرة له على تحريك اعضاء شبه ميتة .

وكان ولا بد ، رغم ما بها من عاهة ان تدرس ، وكان ولابد ان تتهيأ على الاقل للانتصاب عموديا ، فلا يعقل ان تزحف الى المدرسة زحفا . وتحت عناية اضافية من طبيب ، استطاعت بعد اشهر من العلاج المتواصل ان تستند فتغير خطوات متقاربة متثاقلة ، فتجر رجليها جرا ، فتحتك بالارض احتكاكا مؤلما ، وكان هذا التحسن مشجعا لها ولمن حولها للمزيد من العناية ، حتى تستطيع السير وحدها بدون سند ، متغاضين عن التواء الساقين اللتين تتعبانها ، فتعجزان عن حملها وما تهيأتا لذلك من قبل.وكانت أياما حرجة بحق، تتشبث

بالايدى وبالحيطان ، تدفع بجسدها دفعا ، برجلين شبه مكبلتين من الركبتين ومنثنيتين الى الداخل ، وسرعان ما يجتاحها الارهاق وهى تجهد نفسها على ذلك ، وعندما تتخاذل حاملتاها الهزيلتان تسقط على عجزها مما يزيد فى اضطرابها . ان الاعين لابد ترقبها وهى ان تخف شيئا مما يحوم حولها فهى تخاف الاعين ، انها لا تكف على صفعها بجحوظها ، ففيها من حب الاطلاع الكثير بما فى حب الاطلاع من شفقة ورحمة من الكبار ، وهمسا ولمزا وسخرية من الصغار .

وكان اصرارها على تسخير رجليها لحملها قويا ، واستجابت الاقدار،فكانت ارتعاشات في أول الامر واضطرابات،وكان الانفراج، لقد قهرت الزحف والعجز والسند ، وها هى تشد قامتها شدا وتتقدم فى تثاقل ، وتشعر برجوح كفة على اخرى فترتبك اول الامر ، ولكنها سرعان ما تتجلد ، فتركز كامل قوتها على نقطة ارتكاز وسطى ، حتى اذا ما استوت فى غير تأرجح ولا ارتعاش ، بدأت من الصفر ، وأعادت التجربة وكلها ايمان بأنها منتصرة .

ولم يكن التشويه حاصلا برجليها فقط ولكن كان معصماها منثنيتين الى الداخل ، وقد تداخلت الاصابع ، وهى عاجزة على التحكم فيها لامساك القلم والكتاب ، بعد ان الفت الزحف والخمول فى امساك الاشياء الصغيرة التى تتطلب رشاقة فى الانامل وخفة فى الحركة فى غير فوضى ، وكانت على موعد من جديد لقهر العجز ، فدخلت فى صراع عنيف مع اللاطبيعى الحائل بينها وبين الدراسة ، وجعلت القلم بين اصابعها ، وارادت التحكم فى مصيره ، فخانتها الاصابع ، وكان لا بد لها ان تروضها لهذا العمل ، وتتحرك الانامل كيفما اتفق الى حد الالم ، وتلتقط خازن الحروف فيسقط ، فتلتقطه من جديد، ويتأهب كامل جسدها ويتحفز للقبض عليه بين ثلاثة انامل ، وعندما يتم القبض ويقترب المشدود الى الارض وينغرس فى التراب بدفع خفيف ، يغوص داخل اليد ليبرز من اعلاها ، وتعيده الى مكانه ليتكرر المشهد الساعات والايام والاسابيع ، لا ملل ولا ضجر ، لقد منحت قوة غريبة وعجيبة على الصبر وقهر المستحيل ، وكان لها ما ارادت ، لقد استقر القلم اخيرا بين اناملها ، خاشعا لسيدته يأتمر بأمرها وليس له اختيار بعد ذلك الا الطاعة العمياء .

واحتضنتها السنة الدراسية الاولى ، وهناك تبددت لها الفوارق الشاسعة ، بين صبيان كالعفاريت وبين انتصارها المزعوم ، وكادت هذه الظاهرة تعيدها الى سالف عهدها فى انتقال دائب بين اركان ــ الحوش ــ ولكن فوزا فى الدراسة حققته وهى لا تعى ــ على جميع التلاميذ فى الفصل ، دفعها الى مواصلة

الصراع ، وطربت لذلك الفوز ، ورقصت جوارحها فنسيت عاهتها وسخرية الصبيان التلاميذ منها ، وقررت التصدى لهم بالنجاح فى الدراسة وليكن سجالا معهم الى ما لا نهاية.وكان النجاح حليفها طيلة ست سنوات،وما من عام يمضى الا وتزداد فيه اصرارا على كسب الرهان الذى وضعته لنفسها ، ورغم هذا فلم تكن سنوات مريحة بالمرة ، وهى لا تقدر على نسيان ما بها من عاهة ، وكيف تنسى وهى شبه مشلولة والتلاميذ لا يكفون عن ملاحقتها مذكريها بحالها ، فتسقط على عجزها تبكى ، وليس لها من مفر الا الدراسة والخروج من المرحلة الابتدائية ، وكان لها ما ارادت .

انه عالم آخر بحق ؟ ولقد وجدت من بعض زميلاتها السلوى ، وتحققت انها الآن مع كائنات ناضجة بعض الشىء ، وكان عطاؤها كبيرا بعد ان ساعدتها الظروف ، فعائلتها تحوم حولها تنفذ لها كل طلباتها لتنسيها حالها ، والاساتذة يمنحونها من وقتهم وجهدهم حتى ينسوها نقصها . كانت تحس ان الكل يتألمون من اجلها ، فيصطنعون المساعدة والابتسام لها ، وكانت تتقبل ذلك وهى تود ان يكوَنوا طبيعيين اكثر من ذلك ، انها تكره الافتعال كرهها للذنوب ، وهى مقتنعة ان جلهم فى الواقع لا يرتاحون لرؤيتها ولا يشعرون بذلك لان عاهتها كتشويه فى انسان يسعى بينهم ، تربطه بهم روابط قوية ، قد تمس مشاعرهم، فيندفعون لا اراديا ، اما لمساعدتها ماديا او معنويا ، لانهم لا يعرفون ولا يحسنون تصرفا آخر يخرجهم مما هم فيه من حرج . وكم كانت تشفق لحالهم ! وهم ينثنون بجذوعهم ، وبريق عيونهم فزع من عينيها الصغيرتين اللتين اكتسبتا ثقة من شخصيتها القوية المصرة على تحدى الحياة بصعابها ، حتى اذا ما رأت من احدهم تكلفا ، اطرقت وانسحبت عنه حتى لا تكلفه مسخا لا يبتغيه .

ولم يكن يتعبها الا التنقل من المسكن الى المعهد ، وكانت تشعر بتخاذل برجليها ولو اسلمت عنانها اليه لتراخت ولدب فيها الوهن ، ولكنها عوض ان تطلب الراحة برهة ، تراها تندفع بكل اصرار ، متحدية الالم والوهن . لا شىء يقف حائلا بينها وبين الدراسة،ان الاقدار بعثت بها الى الدنيا وهى شبه عاجزة وتجهل الأسباب الداعية الى ذلك ، وبعد أن تغلبت على بعض من هذا العجز واكتشافها لنبوغها الفكرى فى التعلم ، اصبح عزاؤها القلم والكتاب ، تعيش بهما ومن أجلهما ، ان كل شىء بدونهما لا طعم له ، وهى فى سكرتها بهما غير موجودة فى العالم الخارجى للحرف والكلمة ، فهناك تنشد السعادة الخيالية والارتياح ، حتى اذا ما غابت برهة عن مصدر سعادتها ، واكتشفت الحقيقة التى تكمن فى كل عضو من اعضائها ، وفى نظرات من حولها من اشباح الانسان ، ارتبكت وجزعت وكأنها اكتشفت فى التو واللحظة ما بها ، وعادت الى

مطالعاتها ـ بول وفرجيني ـ الشاعر ـ القدر ـ الاجنحة المتكسرة ـ الارواح المتمردة ـ وهناك كانت تطول غيبتها عن عالمها الحقيقى المحسوس فلا تعود منه الاو هى منتشية الى حد الانسلاخ كليا من وضعها الذى لا تحسد عليه ، وتبرق عيناها وهى فى غرفتها خارج النافذة ، الى سماء صافية ، مزدانة بلآلىء النجوم ومحيا القمر ، وفى هذا المشهد الساحر تلتقى بأبطال قصصها فتناجيهم ويناجونها ، فتقفز وراء هذا على جواده الابيض كالثلج يسابق الريح ، وتركب مع ذلك فى قارب يمخر مياه الاودية ، والزهور تبتسم لها وتحييها بالجمال والعبير ، وتتسارع مع الآخر فى المروج الخضر ، فلا عجز ولا وهن ، حتى اذا ما كل خيالها من مجاراتها فى حلم اليقظة ، عاد بها الى الغرفة وصاحبته .

وكان ولابد ان تنهار ، فتلازم الفراش اياما ، لقد استهلكت كامل احتياطى اعصابها الذى هو رأس مالها، لمجابهة تحديات الحياة، وكان هذا وليد انغماسها الكلى فى الدراسة والمطالعة ، حتى اصبحت تكره تمضية اوقاتها بعيدا عن الكتاب ، وما فى هذا من معاناة دقيقة بنقصها ، فتمخض عن ذلك حساسية مفرطة ، تضخم لها الاحداث والظواهر فتكتسى صبغة بعيدة عما هى عليه فى الواقع ، وهناك يصبح الانسان فى غير مأمن من فقدان السيطرة الكاملة على اتزان عقله ، فيسقط عندما يحترق ما تبقى من احتياطى الاعصاب .

ولزمت الفراش مرغمة وقد ابت ذلك اول الامر ، ولكن الوهن والانهيار كانا اقوى من كل العزائم ، حتى ولو كانت من فولاذ . وصارت تهذى بأبطال القصص والاساطير ، من حملوها بعيدا الى المروج الخضر والاودية الجارية ، على صهوات الجياد تسابق الريح ، وفى قوارب تنزلق على مياه لامعة ، يسحر خريرها الاذان ويشدها اليه ... وتزجر الصبية العفاريت وهم يحومون حولها وقد اضطربت بينهم حتى صارت كالقطة التى انتزعت من واد كادت تستقر فى قاعه ... وتزعق فيهم ... اغربوا عن وجهى ... فلا يزدادون الا تفحصا فيها بعيون لا ترحم ، ان لكل كائن نقطة ضعف ، اذا أتى عليها الدهر بغتة ، تهاوى كما يتهاوى البناء الهرم الشامخ ، وتصرخ فى الصبية العفاريت ، فلا يتحرك منهم احد ،وتتغير سحناتهم ، فاذا بهم الاشباح المخيفة ، قبح الوجوه بأذيال الافاعى، يتقدمون منها ببطء ليصبحوا الكابوس الذى يذهب بالصواب ، وتهم بالفرار وقد اعتادت الوثب على الجداول والسواقى ومسابقة حبيبها الاسطورة الذى قهر الابطال وساس الجياد الجامحة واصطاد الليوث الضارية ، ولكن هيهات ان تجد للفرار نصيبا ، ان العفاريت الاشباح ، قطعوا عنها خط الرجعة ، كل الطرق المؤدية للفرار محروسة ، ولقد خانتها رجلاها ومادت الارض تحتها والتصق السحاب الداكن بالارض فلم يعد اى شىء جميل ، كل شىء اصطبغ بالسواد

والوحشة والرعب ، لم يعد للحياة طعم ولا معنى ، الدنيا تضيق بالنفس بعدما فقدت رحابتها ··· الاختناق ··· الاختناق ··· الاختناق ··· والصرخة تحجز بالاعماق ··· الكبت ··· الكبت ··· الكبت ··· الكبت ··· ان جوهرها يغوص فى عدم مجهول وبغيض ، وقد انسلخت من ذلك الجوهر وقطعت كل الاتصالات بينه وبينها ، كلما تعلم ، انه صار عدما .

عندما افاقت ، كانت لا تزال تهذى من الخوف والجزع ، وفتحت عينيها تتفحص المكان ، وكأنها لا تصدق انها لا تزال تتنفس فى العالم الذى لم ينقرض بعد ، بعد ان عصرها الكابوس كأى شىء لا معنى له · وما ان عادت لها عافيتها حتى عادت الى دراستها لتقهر الصبية والاشباح والكابوس والعجز ، لقد عادت وكلها ايمان بانها سوف لن تقع مرة اخرى فريسة للخذلان والانهيار ، ستسهر على عافيتها كما تسهر على النجاح ، ولكنها كانت تسهر بين الحين والآخر ، فتنساب فى قراءة قصة وقد شدت انتباهها ، ان فيها من النسيان والانسلاخ من جسدها ومن ارضيتها تلك ما يطيل ساعات الاستغراق ، والاستغراق الكامل لاشىء يمنعها من ان تهجر النقص والعجز ، فكما لكل الكائنات الكاملة الحق فى ان تتمتع بامتيازات كمالها ، فلها الحق فى ان تهجر عجزها وانعكاساته ولو أدى بها ذلك الى الانسلاخ الكامل من الحياة . وعندما يغمض جفناها وتتراخى اناملها تستسلم للنوم ، ان حياتها تكاد تقتصر على الهروب من الواقع ، ولا تصلى عذابا الا وهى تجر رجليها جرا ، والاعين الثاقبة تخزها ، والوجوه المتأثرة تترجم عنها ذلك وتنزلق الالسن ··· مسكينة ··· يارب ··· هى لا تكره رقة القلب ولا ذكر الله ، ولكنها تكره ككل صاحب عاهة ان تصغى الى الفاظ تتصل بها وبعلتها من قريب او من بعيد ، لان ذلك يفسد عليها التلهى بغير عجزها ، وهى لا تفتأ تهرب بخيالها الى عالم كله سعادة ، ولا مكان للالم فيه ولا للانين ، لا شىء يعكر تلك السماء الصافية او تلك الارض الخصبة ، وذلك النسيم العليل وتلك النفوس المجنحة التى جثت فى محراب السعادة ، فتذبح لها القرابين لتشد وثاق الالم جيدا بسلاسل من حديد ، حتى لا ينطلق من عقاله على حين غفلة وينقض على النفوس يعذبها ويشقيها .

وانقضت سنوات طويلة ، ولم يبق الا اشهر وتتقدم الى الاختبار النهائى لتتخرج مدرسة لم تكن تصدق وهى فى خلوتها من انها تخلصت من كل هذه السنين الطويلة من الدراسة والعذاب الجسدى والنفسى ، صراع دائب لا هوادة فيه مع العجز والخذلان ، لا هم لها الا النجاح ولا شىء غير النجاح ، فما تطلبه هو غاية كل يوم وكل اختبار وكل سنة ، ولم يكن تفكيرها مركزافى نجاح نهائى ، بل لم تكن ترجو شيئا بهذا النوع من الظفر ، ولكن حب البروز

على الاخرين هو الذى دفعها الى ذلك دفعا لا شعوريا ، ولقد كان هذا وليد ما بها من نقص ، وحتى الايام الاخيرة التى سبقت الاختبار لم تكن تفكر الا فى الظفر باعجاب من يحيطون بها ، اما ما عدا ذلك فهى خالية البال منه الا ككل انسان يحلم بالتحول .

وكان النجاح حليفها كالعادة ، وكانت الاولى فى قائمة التخرج وأحاط بها زملاؤها واقاربها يهنئون وهى تقلب النظر بينهم فى وجوم ، لقد بدرت منها ابتسامة سرعان ما اختفت ، لم تعرف ما الذى طرأ عليها ، كل ما تعرفه ان الحقيقة تعرت امامها بلا زيف ولا نفاق ، ان العفاريت الذين كانوا يشاركونها الزمالة والصداقة فى الفصل ، فكان بعضهم معها وبعضهم عليها ، سيصيرون كلهم عليها ، ستصلى بنظراتهم التى ستعريها وتنهشها وبتعليقاتهم الصبيانية غير المتزنة . انها لم تقدر على تجاهلهم وهى كأى رفيقة فى الفصل ، فكيف لها ان تتجاهلهم وهى الصنم الناقص المتحرك طيلة الدرس امامهم ؟ ولا مفر لهم الا الاستماع لها والتحديق فيها ، وكيف لها ان تظهر الكائن غير المنقوص حتى يتم الدرس ثم وهى خارجة من المعهد ٠ فى تلك الاونة تحققت انها كانت تعيش وهم النجاح وتمتمت ٠٠٠ هل حقا انهم فرحون بنجاحى ، ام فرحون لاننى اصبحت اعتمد على نفسى بعد ان اصبحت مدرسة !؟ وحتى لا يكلفون انفسهم مبالغة فى الشفقة على ، واختيار الالفاظ المناسبة التى يدخرونها لى٠ان العفاريت الصبيان لا يخفون عبثهم بى وهم فى سنى اللاعقل ، وحكمها عليهم كحكم القانون على القاصرين والمجانين ، فالراشدون العقلاء تعمى بصائرهم عن جوهر الكائن بنجاحه وباصراره ، بعزمه وقوة ارادته ، بحبه للخير والجمال ونقاء سريرته ، فلا يبصرون فيه الا الشكل ، بحثا عن القوام الفارع والعيون الساحرة والشعر الذهبى والجمال الخلاب ، حتى اذا كانت صاحبة هذه الامتيازات عاهرة تهتك فى كل نبضة من نبضاتها شرفها الذى هو وديعة لديها ، وتجعل من وسطها مزبلة المدينة . وتراءى لها شبحها وهو يترنح فى الطريق ثملا ، وكل الاشباح مولين لها الادبار الا الصغار الاشرار وغمغمت ٠٠٠ اى نجاح هذا وأى انتصار ..!؟ ان نقصى تضخم لدى الآن ... انه يهدر كالبركان ، ونادت فى صمت ٠٠٠ ايتها الاقدار ، لقد شبعت وهما بالانتصار هل اعيش بهذا الوهم حتى النهاية ؟ لقد نفع الوهم فى الدراسة فهل ينفع فى الزواج ؟ انى اشك فى ذلك ايتها الاقدار الا ان تتحقق المعجزة ٠٠٠ الامنية ٠٠٠ الحلم ٠

ما النجاح ما الاصرار ... ما الفائدة من كل هذا ما الفائدة ..!؟

مر شريط صراعها مع النجاح من جديد ، صراع لا هوادة فيه ضد العجز والخذلان ، وبدت منشرحة نوعا ما ، انها ها هناك تزحف زحفا كشاة نهشها

ذنب فتركها شبه ميتة تزحف ولا تدرى الى اين ، ولماذا هى تتحرك ؟ ولقد نجت وانتصبت على رجلين شبه مكبلتين ، وها هى تخط بالقلم علـى الارض فترسم اسمها ، وتحتضنها فصول المدارس فتفلح فى كسب الرهان ، قد لا يصدق المرء انه كسب حلما ، فيبقى هنيهة يتحسس طريق اليقظة مع انه ما كـان نائما ولا ثملا ، وانما اسكرته المفاجأة فجمدت جل حواسه ، الا بصيصا من ذلك الكسب يخز مشاعره التى ابت ان تتجاوب معه وان تتقبله لاول وهلة ، لقد تعودت على الكسب الجزئى ولكن ان تمتلك الحلم ، ان تمتلك ما ليس باليد ، وقد صدم الكثيرون بخيبة امل حطمت حياتهم فالنجاح لديها حق وهو فى متناول الجميع ولكنه صعب المنال حتى ولو كانت اهلا له ، لقد عاينت نجبـاء طيلـة السنة الدراسية ولكنهم فى الختام يسقطون السقوط الذريع فيتهاوون كما يتهاوى البناء الهرم اثر هزة زلزال .

شعرت بان تخميناتها بالنجاح واسبابه وانعكاساته قد غيرت مـن حالها ، فذهب عنها شحوبها واتت على كامل جسدها قشعريرة الذى يجابه امرا جليلا· ودبت فيها روح جديدة غير التى تسكن جسدها ، حبلى بشحنة من الطمانينة ،السكينة والشعور بالفخر ، وهى تتوج باكليل من الغار ، لم تعد ترى ابطالا خارقين للعادة ، لا على صهوات الجياد ولا على القوارب النهرية ، لم تعد ترى الا ذاتها ، لقد كان ابطالها أساطير ، اما هى فحقيقة تبصـر بالعين المجـردة وتلمس بالانامل التى يسرى فيها الدم . لم يعد القمر جميلا ولا المروج الخضر تسحر لبها ، ولا خرير الاودية الجارية يشد انتباهها ، ان كل هذه الكائنات ما كانت جميلة وخلابة وساحرة الا بها ، فبها تعطى الكائنـات النعوت الـتى تستحقها وبدونها فلا شىء هى الا كما هى .

ستنزل الى الشارع ، وستتكسر نظرات النـاس وتعليقاتهم عـلى صخور شاطئها ، لقد استغربت كيف تخاذلت اول مرة ، وكـادت تسقط فى حضـن اليأس بعد ان صارعته السنين الطـوال وصرعتـه ، ستمخر البحـر الثائر ، ولتتكسر أمواجه على جوانب سفينتها وهى لا تبـالى ، ستتقـدم فى شمـوخ الواثق من نفسه نحو جزيرة السعادة الحقيقية ، ثمرة صراعها الطويل الذى لن يتوقف ما دام فيها عرق نابض ·

وعندما انفردت بغرفتها وفتحت النافذة على مصراعيها احست ان ابطالهـا انكمشوا لرؤيتها وكذلك القمر والاودية والمروج الخضر .

النـاصـر التـومى
تـونس

أغنية حب لا تنتهي ...

شعر : حمادي الباجي

أنا المتصوف في حبها   وإن قد رموني بمس الجنون
فما عرف الناس قبلي غراما   كمثل غرامي، وهل يعرفون ؟
بنفسي عوالم لا تنتهي   أرى الله فيها بعين اليقين
وقلبي بدنيا الغرام مليك   يذل لسلطانه العاشقون
غرامي بها فوق كل غرام   وهيهات أصغي لما يدعون
أصلي على قدميها لأني   أحب الصلاة ، فهل تعلمون ؟
وأسجد للنور في ظلها   لعلي أكون من المتقين
وأستغفر الله في سجدتي   فإني لربي من الساجدين
وإني لأنسى بها الكون حتى   أراني أهيم مع الهائمين
تهدهدني هجسات الهوى   فأهتز كالطفل في كل حين
تفيض علي كفيض الشعاع   فأحسب أني في عليين
وأصغي الى وحيها في وقار   ولم أتجاوز خطى الأربعين
وآمنت بالروح في حبها   وكم قبل قد ساورتني الظنون
وفي الشك أيقنت بالمعجزات   وما الشك إلا طريق اليقين
وما كنت أخشى اللظى ذات   يوم لأني تعودت حر الحنين
وقد خطت النار في جبهتي   سطورا من النور تغري العيون
وقفت على دربها عاريا   لكيما تشاهد حبي الدفين
وتعلم أني على عهدها   أموت وأبعث في كل حين
وأشتاق فيها إلى جنة   توارت ، وما زلت ماء وطين
أحب ... ولكنني صامت   وكم لي يلذ حديث السكون

وَمَا الحُبّ إلاَّ صَدى مُهْجَتِي ... تُـرَدّدُهُ هَمَسَاتُ اللُّحُـون
وَأفْزَعُ حِينا إلى الخَمْر حَتَّى ... أرَانِي ثَمِلْتُ لِحَدّ الجُنُون
فَمَا أوْهَنَتْنِي كُؤُوسُ الطِّلاَ ... وَمَا دَنَّسَ الإثْمُ مِنِّي الجبين
وَأدْأبُ عَبْرَ الظَّلاَم ـ السُّرى ... وَمَا كُنْتُ يَوْمًا مِنَ اليَائِسِين
أرَى وَجْهَهَا فِي نَعِيم الْخُلُود ... يُضَمِّخُهُ الوَرْدُ وَاليَاسَمِين
كَأنِي بِهَا مَلَكٌ عَـابِـرٌ ... يُلَوّحُ لِي فِي السَّمَا بِاليَمَين
وَأسْخَرُ مِنْ عُذّلِي فِي هَوَاهَا ... وَهُمْ فِي الضَّلاَلَة لا يَعْقِلُون.
أكَادُ أزَحْزِحُ فِي حُبِّهَـا ... نُجُومَ السَّمَاءِ فَهَلْ يُبْصِرون.
أذُوبُ هُيَامًا وَأفْنَى بِهَا ... وَلَـكِنَّنِي أتَحَدّى المَنُـون
لأنِّي عَرَفْتُ بِهَا المُعْجِزَات ... وَكَانُوا بِآيَاتِهَا يَمْتَرُون
وَمَا ازْدَدتُ إلاّ بِهَا عِفَّةً ... وَكَمْ سَلَبَ الحُبّ عَقْلا وَدِين!
وَأرْتَادُ آفَاقَهَا فِي جُمُوح ... وَهُمْ فِي شِعَابِ الثَّرى يَسْخَرُون
وَأقْبَس مِنْ نُورِهَا العَبْقَرِيّ ... أشِعَّةَ كَوْن بَدِيع الفُتُون
وَأسْبَحُ فِي المُطْلَقِ اللا نِهَائِي ... وَلاَ لِي شِرَاعٌ وَلاَ لِي سَفِين
وَتَزْدَحِمُ الخَطَرَاتُ بِنَفْسِي ... وَفِيهَا أرَى كُلّ مَعْنَى مُبِين
فَأرْسُمُهَا فِي إطَار ثَمِين ... وَأعْبُدُ ذَاكَ الإطَارَ الثَّمِين
وَقَدْ أفْرَغَ الفَجْرُ فِيهَا دِمَاهُ ... وَقَبَّلَتِ الشَّمْسُ مِنْهَا الجَبِين
وَمَالَتْ إلَيْهَا السَّمَاءُ وَقَـد ... غَدَا البَحْرُ فِي مُقْلَتَيْهَا سَجِين
وَوَدّتْ مَلاَئِكَةُ الله لَوْ ... تُعَانِقُهَا بَيْنَ حِينٍ وَحِين
وَرَقَّتْ فَكَادَتْ تَكُونُ إلاهًا ... تَحَجَّبَ عَنْ أعْيُنِ النَّاظِرِين
أيَا رَبّ عَفْوَكَ زَلّ اللِّسَانُ ... وَأخْطَأتُ إنِّي مِنَ التَّائِبِين
وَيَارَبّ عَفْوَكَ إنِّي فُتِنْتُ ... بِهَا وَاتَّخَذْتُ الهَوَى لِي قَرِين
وَإنَّكَ خَالِقُ كُلِ جَمَالٍ ... تَبَارَكْتَ يَا أحْسَنَ الخَالِقِين

حمادى الباجى

البناء القصصي وأشكاله عند يوسف إدريس

بقلم : حسين بن ضياف

لقد اختلف النقاد فى تحديد انواع القصص واشكالها وطرق عرضها — فهناك من يقسم القصص وينوعها بحسب الشخصيات والاحداث والأزمنة كالدكتور محمد يوسف نجم الذى يرى انواع القصص تتمثل فى قصة الشخصيات ذات العديد من الشخصيات والقصة التمثيلية وهى التى تتلاحم فيها الشخصيات بالحوادث — وقصة الحوادث ، ثم قصة الاجيال والقصة التاريخية (1) .

كما ان من النقاد من يرى — وفى رأيه الكثير من الصواب انه يعسر ان تحدد طرقا خاصة محدودة يسير عليها القصاصون فى طرق العرض واشكالهم القصصية وذلك لان تلك الطرق تعود الى ابتكار الكاتب وعبقريته ونقطة بدايته او نقطة نهايته التى يختارها الكاتب ومنها تنطلق قصته او اليها تنتهى كما يتنحى الكاتب تماما عن القصة ليترك للبطل مهمة الحديث عن نفسه .

و « الحق ان عرض القصة » له طرق كثيرة يصعب تحديدها « اذ ان حرية المؤلف فى هذا الجنس الادبى لا تحدها القواعد كل التحديد ، وعبقريته هى التى تعينه على الافادة من الطريقة التى يختارها ، او على الانتفاع بكثير من الطرق يزاوج بينها فى قصته . فقد يبدأ المؤلف قصته من أول حوادثها ، فيصف نشأة ابطالها وميلاد علاقاتهم بعضهم بالبعض ويتبع

---

(1) انظر الدكتور محمد يوسف نجم . كتابه فن القصة — فصل طرق العرض وانواع القصة ص 143 — 166 وهو يقول انه اعتمد فى الجزء الاكبر من هذا الفصل على كتاب the structure of the novel Bv - Edwin Muir

ذلك منهجا زمنيا في عرض الاحداث ، كما في قصة « ما دام بوفاري » لفلوبير مثلا وقصة ـ « الاخوة كرامازوف » .

وقد تبدأ القصة بنهايتها وكثيرا ما يقع ذلك في القصص البوليسية . فتبدأ بوقوع الجريمة لتمييز خيوطها والرجوع الى كشف الغامض منها . وقد يبدأ المؤلف قصته من فترة خاصة من حياة الشخصية الرئيسية في منظر صامت يعتمد على الوصف اعتمادا كبيرا . ثم يقف ليرجع الى الوراء سنيين كثيرة ، يشرح بهذا الرجوع المنظر الذى قدمه اولا وهذه الوسيلة غالبة في قصص بلزاك (2) .

ثم قد يدع الكاتب بطل القصة يتحدث عن نفسه بضمير المتكلم ليخلق الشعور بالالفة والثقة ولكن على الكاتب ان يحتاط في السرد حينئذ فيسرد الحكاية بما يحيط بها من مجال ، لتكون مقنعة من الناحية الفنية (3) .

على ان هناك محاولة لتحديد الاشكال القصصية قام بها ـ سلوفسكي ـ من الشكلانيين ولم يضف اليها البنيويون أو الهيكليون شيئا ـ وقد حددوا هذه الاشكال بأربعة أنواع هي التالية :

1) بناء النظم : Enfilage
2) بناء التوازي : Parallélisme
3) البناء الدائري Construction circulaire
4) بناء تدرجي Construction en paliers (4)

وسنعتمد على تقسيم سلوفسكي لاستخراج البعض من الاشكال القصصية التي اعتمدها يوسف ادريس في مجموعاته القصصية الثلاث ونوعية البناء الغالب عليها .

---

(2) الدكتور محمد غنيمى هلال ـ مدخل الى النقد الادبي الحديث ص 625 وعن
J. Duberville : théorie de l'art et des genres littéraire P 432 - 433
(3) المرجع السابق ص 625 ـ 626 .
(4) انظر ـ الرشيد الغربي ـ مسألية القصة من خلال النظريات الحديثة الحياة الثقافية عدد 10 سنة 1976 وعدد 1 سنة 1977 ص 99 .

وطريقة العرض عند يوسف ادريس قليلا ما خرجت عن الاساليب الكلاسيكية للقصة المعروفة من الوصف والسرد والسيرة الذاتية الى ما يسمى الحوار الباطني .

بنـاء النظـم :

بناء النظم : وهى عبارة عن قصص يربط بينها رابط كما تنتظم حبات المسبحة فى الخيط ومثل هذا النوع نجده فى الف ليلة وليلة وكليلة ودمنة ومثل هذا الشكل لا نجده فى قصص يوسف ادريس .

بناء التـوازى :

وهو سرد قصتين تدور احداثهما فى فترة واحدة وهذه كذلك لا نجد يوسف ادريس يبنى بعض قصصه هذا البناء .

البنـاء الدائـرى : construction circulaire

وهو ان يبدأ الكاتب بنهاية القصة ويسير فى سرده حتى يعود الى النهاية .

ونجد الكاتب قد اعتمد على هذا الشكل الدائرى فى قصة « سره الباتع » (5) حيث بدأ من النهاية التى وصل اليها السلطان حامد الذى لـه ضريح فى كـل قرية قرب الجبانة واخذ يتبع القصة حتى وصل الى النهاية التى بدأ منها حيث قتل جنود نابليون السلطان حامد وقطعوا جسمه الى قطـع القوها فى اماكن متباعدة ولكن حيثما القوا قطعة اقام الفلاحون حولها ضريحا لذا كانت له هذه الاضرحة فى كثير من القرى .

البنـاء التـدريجى : construction en paliers

وهى التى تتدرج فيها القصة او مقاطعها فى تصوير الاحـداث وغيرها من عناصر القصة وهذا البناء هو الشكل الغالب على قصص يوسف ادريس .

وهناك اشكال اخرى غير التى ذكرنا اعتمدها يوسف ادريس كالتضمين L'Enchassement وطريقة التناوب او التداول L'Alternance

(5) المؤلفات الكاملة مجموعة حادثة شرف ص 12 .

التضميـــن : L'enchassement

وهذه الطريقة التضمين تتمثل فى قصة قد يقطع تيارها قصة اخرى ـ اى تتضمن القصة الاصلية قصة أخرى (6) .

وهذا النوع من التضمين نجده عند يوسف ادريس غالبا فى سرده لقصة حياة شخصية ما قد تكون عابرة اى لا تعتمد عليها القصة الاصلية وباستطاعة الكاتب ان يستغنى عن ذكرها .

لكنه قد يرى انه من الاوفق لزيادة بلورة الصورة فى ذهن القارىء للقصة ان يقدم لنا تلك القصة ضمن القصة الام . وهذا كما فى قصة سرة الباتع ـ عند ذكر قصة حياة ـ السيدة انترناسيونال اوجين (7) ونجد كذلك هـذا النوع من التضمين فى قصته الطويلة ـ الغريب عندما يضمن القصة الاصلية ـ قصة زوجة ذلك المجرم البندرانية الجميلة التى يضعها فى العزبة ولكن لا احد يتجزأ على القرب منها ـ وهى تعمل ما فى وسعها لتتحداه محاولة ربط علاقات مـع أى رجل بل حتى مع شاب صغير ارسله اليها ولكن لا احد يجرأ على ذلك فرقا من انتقام زوجها المجرم الخطير .

وقد امتد الحديث عنها مدى عشر صفحات وأكثر « وفتح الباب ولومضة خاطفة لمحت اجمل وجه وقعت عليه عيناى وجه ابيض يكاد بياضه ان يصبح شفافا ومن وسامة تقاطيعه ان يتحول الى صورة من الصور التى نراها على علب الحلوى والملبس وكان واضحا انها انتهت توا من الحمام (8) « فهى امراة وأنا شاب غلظ صوتى وبرزت حنجرتى ثم انها ليست صغيـرة فقط وانما حلـوة بطريقة لا يتصورها العقل... فيكفى ما في عينيها من سواد جميل يشع رغبات مجنونة تكاد تنطق وتصيح ولا تجد في كل هذا حرجا من الطبطبة واخذى تحت أبطلها ، وأدارت وجهى ناحيتها كما حاولت ان أغض طرفى أو استدير » (9) .

---

(6) انظر محمد رشيد ثابت فى حديث عيسى بن هشام ـ البنية القصصيـة ومدلولها الاجتماعى ص 51 .

(7) المؤلفات الكاملة . مجموعة حادثة شرف ص 162 .

(8) المؤلفات الكاملة . ص 526 .

(9) نفس المرجع ص 528 .

ويواصل الكاتب هذه القصة المضمنة للقصة الاصل .

« ـ بتكذب على ليه يا أفنـدى

ابتلعت ريقى بصوت حاولت كتمه وقبل ان ابتلعه مرة أخرى قال :

ـ انت عملت حاجة مع وردة .

ويبدو انه لمحنى اعتدل فى مكانى ملسوعا فوجدته يستطرد معدلا سؤاله

ـ والا هى لعبت عليك يا أفندى (10) .

وقد تكون القصة الثانية المضمنة تدور حول احدى الشخصيات الرئيسية فى القصة وهذا كما فى قصة « فوق حدود العقل » (11) اذ تتضمن القصـة التى تقوم على احتيال ضابط شرطة على أخيه ليدخله الى مستشفى المجـانين حتى يستأثر هو ببعض القراريط تتضمن قصة اخ ثالث وهى التالية :

« ما يغركش يابيه اصل انا اعصابى تعبانة شوية وتعالجت عند الدكتور ناشد فهمى المدرس بتاع الامراض النفسانية فى الدمرداش .

اصل حصل لى انهيار اعصابى اصل قتلت مرة حرامى ومن يومها وانا بدوخ وكل ما اشوف بندقية نفسى تغم على ...

اصل كنت عسكرى داورية وبعدين شفت حرامى بيكسر دكانه لما شافنى جرى ضربت طلقة فى رجليه اهوشه ما وقفش ـ فضربت فى المليان قام جت الطلقة فى ظهره ومات وفضلت واقف جنبه لما النهار طلـع ... حولونى عـلى المستشفى وخدت 12 جلسة كهربائية فى مخى .. (ص 255 ـ 256) (11) .

طريقة التناوب او التداول Alternance وهذه طريقة اخرى فى الاشكال القصصية تطلق على الطريقة التى يسلكها فى سرد قصتين معا انما بالتناوب او التداول حتى ينتهيا معا (12) .

وهذا البناء القصصى نجده فى قصته الصوفية ـ صاحب مصر ـ والقصتان اللتان يتداول سردهما معاهما قصة عم حسن العجوز ـ وقصة حياة الشرطى صميدة ولكن مع افاضة اكثر فى تحليل شخصية حسن « وتلك هى حياة عـم حسن اختارها وكل انسان يختار حياته بالطريقة التى تحلوله . بعضنا يختار

---

(10) المؤلفات الكاملة . ص 534 .

(11) المرجع السابق . قصة فوق حدود العقل من 255 ـ 256 .

(12) محمد رشيد ثابت فى حديث عيسى بن هشام ص 92 .

المهنة الناجحة ويقضى عمره يحارب زملاءه من ابناء الناجحين » (13) « لابد ان نحسد عم حسن على حياته تلك فهى فى رأيك لابد ارحب وأوسع حيـاة الخفت المكان والزمان والبعد الرابع » (14) .

ولكن تلك تفاصيل لا معنى لها ، ومحاولة يائسة كشرح « كل » من الصعب شرحه فعم حسن ليس مجموعة تصرفات » (15) ثم يعود الى ذكر حياة الشرطى صميدة طبعا كل ذلك بدون انتظام انما بالتناوب والتداول « وصميدة ليس اسمه وانا لا اعرف اسمه ولكنى لابد اذا سميته ان اختار له لقبا كصميدة فيه حرف صاد مذكر الموسيقى » (16) .

ثم يعود الى قصة صميدة بعد صفحات وصفحات « ولابد لنا لنكمـل القصة أن نعرف أشياء كثيرة عن العسكرى بشكل عاجل ، فهو قروى حياتــه الحق بدأت بالعسكرية ودخول الجيش ، وكان الجيش مدرسته هناك صاحب شبان المدينة وعرف المدينة من خلالهم وخرج وقد آلى ان يعرفها بنفسه » (17) .

وينهى هاتين القصتين قصة عم حسن العجوز والشرطى صميــدة اللتين يتناوب ذكرهما رابطا بينهما أواصر وجاعلا لحياة كل منهما علاقة بحياة الآخر « والى الآن لم يزل صميدة مؤمنا واثقا ان عم حسن لابد حى يرزق ناصبا عشة عند تقاطع ما من الطريق ولا تزال كلما مرت به عربة نقل بعد ان يأخذ أرقامها ويرد تحية سائقها يسأله ان كان قد رأى أو التقى بعم حسن » (18) .

وهكذا انتهينا من الحديث عن الاشكال القصصيــة فى مجموعـات يـوسف ادريس الثلاث وطريق عرضها واكدنا على ان الطريقة الغالبة على قصصه هـو الشكل ـ البناء التدرجى ـ وان سلك البناء الدائرى فى قصة واحدة وبنـاء التضمين فى ثلاث قصص وبناء التناوب فى قصة واحدة هى صاحب مصر .

محسن بن ضياف

---

(13) المرجع السابق . مجموعة لغة الآى أى ص 352 .
(14) نفس المرجع ص 354 .
(15) نفس المرجع ص 357 .
(16) المرجع السابق ص 342 .
(17) المرجع السابق ص 361 .
(18) المرجع السابق ص 376 .

إلى رجل ما ..!

شعر : حياة بن الشيخ

اغضب ، فذاك معذبي يغريني   إن كان يدمي القلب او يشقيني
اغضب ومزق بالجفاء مشاعري   كحل بدمع السهد ليل جفوني
اغضب ، أنا أهواك مهما كنت يا   من ضاع في عينيه سر يقيني
أهواك وهما نائيا .. أهواك لحـ   ـنا آسرا ، بصفائه يسبيني
أهواك زوبعة تدمرني أريـ   ـدك ثورة كالموت لا تبقيني
أهواك بحرا ثائرا .. أهواك وحـ   ـشا كاسرا لا كتلة من طين
فتعال يا رجلا أباح دمي ويفـ   ـديه الفؤاد وكل ما بيميني
يا من يغلل حبه قدري وأهـ   ـواه على رغم بكل فتون
ماذا تقول ؟ غبية لن تحصدي   إلا حماقة طيشك المجنون
مولاي عاشقة أنا وعليمة   أني أسيرة لهفتي وحنيني
عفوا فحسبك ما سحقت القلب أعـ   ـواما بزيف تعقل ملعون
ما الحب عندك غير أوهام تزلـ   ـزلها قتامة واقع محزون
والحب عندي لهفة وترقب   والصبر عندي فاق نار ظنوني
دعني أحبك ملهمي ، دعني أقض   الدهر تائهة بدرب شجوني
دعني ألوك فتات وهمي ، خلني   أغدو شهيدة رغبتي وجنوني
ما العمر إلا لحظة ألقاك فيـ   ـها همسة ، أو قبلة تحييني
القلب بعدك لا حياة له ولا   رجل بهذا الكون قد يرضيني

خواطر حول الفقيد الشيخ الصادق الفقي

بقلم : محمد الشعبوني

يقول زين العابدين السنوسي فى كتابه الادب التونسي فى القرن الرابع عشر الهجري عن الشيخ الصادق الفقي (1) : ولد الشيخ الصادق الفقي عام 1313 هـ. باحدى جنان صفاقس الفيحاء بين افياء الزياتين وعبير الرياحين ، على عدوة من بحر ، فتن الانسان والهاه منذ كان حتى اذا اشتد ساعده اتخذ منه مركز حركة وتصدير فاذا هو ميناء الوسط التونسي وصرة حياته بما يثير الشاعرية ويستفز العقل المنقب المدرك . على ان ما فى تربة صفاقس من بركة . وما فى الشجرة المباركة الزيتونة من تبر لحرى بان ينفخ فى خيال الناشئة كل تصور وتطور . وقد حفظ القرآن وانهى تعليمه الابتدائي فى المدارس الدولية ثم سافر الى العاصمة حيث التحق بالكلية الزيتونية فاتم تخرجه بجائزتها (التطويع) وهو منذ خمس سنوات يزاول التدريس بالمدارس الدولية بين جنائن صفاقس الزاهرة الزاهية .

ادبــه :

يستلفت نظرك من أدبه ما يشق عنه من دماثه اخلاق واخلاص هما صفتاه اللتان يمليهما عليك منظر احتشامه وتواضعه عند اللقاء ، ويلاحظ الانسان بسهولة أن أدبه مشبع بعاطفتين عزيزتين وهما :

1) الروح الوطنية التي تشبع بها ايام مزاولته القراءة بالعاصمة .

2) ترديده وشدوه بوصف الطبيعة ولطائفها مما يلهمه جنات صفاقس وبدائعها .

---

(1) الادب التونسي فى القرن 14 هـ. لزين العابدين السنوسي مـج ص 161 والصفحات الموالية .

ونشر له في صحف مختارة من شعره القصائد التالية :

جنة ـ مليحة ـ حفلة طرب ـ بين الزهور والاوتـار ـ الـورد ـ في دار أنسى ـ أشواق وتسلية ـ حب صادق ـ النشيد الخزنداري ـ الاحلام المؤلمة ـ نشيد الطلبة ـ لست أنساك ـ يا ليت شعري ـ مناجاة ـ دمعة على الاخلاق ـ تأييد ـ دخول الكماليين للأستانة ـ صوت طرابلس العرب ـ وطني ـ تونس.

ويقول الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور في كتابه (الحركة الادبية والفكرية في تونس) (2) : « واذا كان الدور الماضي قد رفع بالشعراء الى التغني باحياء المجد الاسلامي والتطلع على عظمة مستقبله فان روح الانبعاث الاسلامي والغيرة على عزة الاسلام وعزة راية الخلافة قد حركا القرائح بالشعر الحماسي المتولد عن الاحداث الحية والمتأثر بما تحركه الاحداث من الشعور القومي السـامي ، فتطورت روح الغيرة القومية الى شكلها الايجابي العملي الذي يشيد بالـروح الكفاحية ويدعو الى الجهاد ويمجد المجاهـدين وكان أقـرب الاحـداث مساسا باحساس الشعراء التونسيين هو حدث حرب طرابلس فاندفع صالح سويسي وسالم بن حميدة والصادق الفقي يصرخون بحمـاسهم في وصـف المعـارك ومواقف الابطال ... فاخرجوا ضربا من الشعر صورت فيه الحرب الطرابلسية بمقابلاتها الدامية وبما وراء المقابلات من عواطف وانفعالات على طريقة شعـر الملاحم » .

اما عكاظية تونس (3) فقد نشرت له في الجزء الاول قصيـدتين : 1) في أسبوع الجيش يقول فيه :

قـوة الجيـش منعــة ونـظــام وحيـــاة مـرضـيــة وســلام
جيشنـا جنــة لـنــا ووقــاء من صروف الازمان وهي جسـام
غمـرتنــا المكــارم الغـــراء الوثقى وحبل لا يعتـريه انفصـام

كما نشرت له القصيد الذي ألقي بين يدى الرئيس الجليل في حفل توزيع المكارم على الادباء وهو قصيد طويل يقول في طالعه : (4)

أيهـا الجيـش أنـت عـروتـنــا وحبتنـا العـــواطـف الشمـــاء

(2) الحركة الادبية والفكرية في تونس محمد الفاضل بن عاشور طبعة الدار التونسية ص 131 .
(3) عكاظية تونس لسنة 1957 ص 100 .
(4) عكاظية تونس لسنة 1957 ص 104 .

وقد عرفت العكاظية بالاستاذ الفقى واوردت موجزا من حياته تقول فيه :
« ولد الشيخ الصادق الفقى بصفاقس عام 1894 وتلقى تعلمه الابتدائى بالمكتب القرآنى حتى حذق القرآن ثم أحرز على شهادة ختم التعليم الابتدائى فى جوان 1910 والتحق بالتعليم الزيتونى بمعهد صفاقس. ثم بالعاصمة وفى عام 1916 أحرز على شهادة التطويع وباشر التجارة اثر ذلك مدة عامين . وفى عام 1924 باشر التدريس بالمكاتب الابتدائية بصفاقس وفى اكتوبر 1945 ادار أول مدرسة ابتدائية للفتيات بصفاقس تحت اسم مدرسة (الفتاة) واستمر على ادارتها ا لىعام 1953 الذى أحيل فيه على المعاش واقتصر على الامامة والخطابة بجامع سيدى منصور والتطوع للتعليم فى فرع البنات التابع لمعهد صفاقس الزيتونية .

هوايته : يهوى ركوب الخيل والسباحة والرماية متأثرا فى ذلك بالبيئة الخاصة .

نشاطه الاجتماعي : أول من رسخ الدعوة الى تعليم الفتاة بصفاقس وألف من الفتيات طبقة أدبية بما نظمه من الاناشيد ووضعه من الروايات .

مؤلفاته وبحوثه : له ديوان ضخم طبع جزء منه فى (كتاب الادب التونسى فى القرن 14 هـ .) للاستاذ السنوسى (كما أشرنا الى ذلك سابقا) وهو أول من حيا تأسيس الحزب الحر الدستورى اثر الحرب العالمية الاولى وأبد شهداء الكفاح القومى . ومن أحرزوا على جائزة الفرق الشعرية .

أسلوبه الشعرى : يتبع الاستاذ الفقى فى أسلوبه الشعرى الطريقة المدرسية أو الاسلوب الكلاسيكى فالنفس واحد فى تأديته لجلالة الملك عبد العزيز آل سعود والزعيم الدكتور ثامر والوطنى الحبيب المعزون وأمير الشعراء خزندار والملك الوطنى المنصف باى ، وأناشيده المدرسية على كثرتها لها طابعها الخاص فى الرقة والاحتشام . وتدخل الطبيعة فى شعره بلون لطيف يستمد رقته من رياحين صفاقس وحدائقها فيقول فى الياسمين :

الياسمين اذا تبسم نوره يحكى النجوم تلعلعت بسماء
والطير تشدو حولها فكانها الحور الحسان تزينت للرائى

ويقول في الحديقة :

هب النسيم عليلا اضناه لطف الربيع
والجو أضحى كفيلا بكل حسن بديع
والماء يجرى كليلا في هيبة وخشوع

بهذا عرفت عكاظية تونس في جزئها الاول (5) بالاستاذ الفقى ، ونشرت له صحفنا ومجلاتنا الوطنية منذ سنة 1920 قصائد عديدة وآخر ما طالعت له قصيدة في رثاء ابنه العزيز الطاهر وكان عنوان القصيد (لوعة أب) وجاء فيه قوله : (6)

أرأيت كيف الراسيات تزول تهوى الى الاعماق وهي تحول

هذا قد كان الفقيد شرفني قبل وفاته ببضعة أشهر بأن طلب مني تقديم ديوانه (الرياض) وما ترددت لحظة في الاستجابة ـ ووضعت مقدمة الديوان، وجاءت منه رسالة (7) يقول فيها : « تلقيت بمزيد الغبطة مقدمتك القيمة التي دبجها يراعك السيال بآيات البيان واملاها شعورك الفياض بالمودة والاحسان. وأراك قد تغلبت عليك العاطفة الشاعرية المفتونة بالطبيعة ومحاسنها . وبالاغاني ومزاهرها ، فأوغلت في مروجها ، واطنبت في ابراز مفاتنها ومباهجها ، فلله درك لقد حببتها للمطالعين ، وحركت العواطف والشجون وقدمت محتويات الديوان أحسن تقديم ، وشوقت اليه طبقات الشعب . وأشرت بايجاز غير مخل الى المواضيع المسطرة فيه وكم وددت لو يذاع شيء من هذا للعموم بواسطة الاذاعة والصحافة ليكونوا على استعداد لتلبية دعوتك الحارة اياهم ليقتنوه ويطالعوه . هذا واني أجدد لك الشكر الوافر على تلبيتك طلب التقديم الذي اعتبرته تشريفا مني فلا غرابة في ذلك منك اذ كل اناء ينضح بما فيه وما رجوت لي من الاماني وعلى اشارتك بهذا الديوان وما فيه فجازاك الله عني خير ما يجزى به المخلصون من عباده ... » .

وكانت هذه الرسالة (7) المؤرخة في 17 نوفمبر 1978 آخر ما اتصلت به من الفقيد حيث كانت بيني وبينه مراسلات أدبية منذ سنوات ترجع الى أيام الشبان المسلمين والاتحاد الصفاقسي الزيتوني ـ ثم تطورت بحكم الزمالة الى

(5) عكاظية تونس لسنة 1957 ص 97 .
(6) الصباح 29 ـ 1 ـ 1974 .
(7) رسالة بخط يده محفوظة عندى بتاريخ 17 نوفمبر 1978 .

تلك اللقاءات الشعرية التى كانت تجمعنا فى اللقاءات لدينية ولوطنية ، وقد رغب منى الفقيد مرة ان ابذل جهدى فى اقناع ادارة الاذاعة بالعدول عن اللحن المميز الذى كانت تفتح به صفاقس برامجها الاذاعية (فى قـلالة نشبح زوج بنات) وكان الله قبل رجاءه فاستبدل اللحن بسواه . ورغب منى مرة أخرى أن أساعده بالكتابة فى الصحافة فى قضية رآها رحمه الله اعتداء أدبيا عليه ذلك أن أحد رجال التعليم المرموقين غير له أبياتا من قصيد ونشره فى أحد تاليفه بدون استئذان منه . وهذا يدل على غيرته رحمه الله على الادب وحبه الخير لبلاده وكيف لا وهو الذى تخـرج على يديه من فتياننا وفتياتنا أجيـال يمثلون اليوم الاسر المثقفة فى بلادنا ـ وهو الذى تغنى طويلا للنـاس وغنى لوطنه وابنائه أخلد الاغانى وأرقها وأشذاها .

وهو الذى ترك لهم فى ديوانه (الرياض) 173 قصيـدة فى 176 صفحـة موزعة على العناصر الآتيـة (الوطنيـات) (فالاجتماعيـات) (فالادبيـات) (فالتهانى) (فالمراثى) (فالاناشيد) ...

حضر الشاعر زفاف صديقه شيخنا المرحـوم الصـادق جبيـر فانشـد يقـول : (8)

أى فوز فى هـذه الليلـة الغـراء ... أغـلى من اعتنـاق الأمـانـى
أى شىء فى هذه الروضة الغنـاء ... أشهـى من استمـاع الأغـانـى
بيـن أنـس ولـذة وهـزار ... يتغنـى بمـورق الأغـصـان
تعزيف الأوتار يحدث فى النفس ... ارتياحا يـودى بصـرف الزمـان
بيـن ورد ويـاسميـن ونسـر ... يـن وفـل ونـرجـس فـتـان
فتنتنـى تـرائـب الكـأس ملـدا ... اذا تهـادت عـرائـس الاقحـوان
وسقتنى مـراشف الـورد كأسـا ... غـار منهـا القـرنفل الارجـوانى
وعـروس النسـرين قد ظللتنـى ... وحمتنى من نـرجس قـد رمـانى
ومـيـاه رقـراقة الحسـن تجـرى ... رائعات تـزرى بحسـن الحسـان
حبـذا تلكم النجـوم اللـواتـى ... يتبـدى من حـولهـا الفرقـدان
هكذا نحن فى حمى القبة الزرقـاء ... نصبـو للمنظـر الاضحيـان
لـو تـراءى الجمـال حسا لطيفـا ... لقطعنـا فـى الحيـن كـل بنـان
صاح استمر واقطف جنى سـرور ... رددتـه حـمـائـم الـوجـدان
وأنـس ليـلاك والتـواجد فيهـا ... وحنينـا لـفـائـز الاجـفـان

(8) من ديوانه الرياض (تحت الطبع) قسم التهانى .

هـذه جنـة المتـاحـف والانـس أراهـا وريـقـة الافـنـان
هـذه السنـة العظيمـة منهـا نـترجـى نتـائـج الاقـتـران
أيهـا الصـادق الامين تفضـل وتقبـل منـى بـديـع التهـانـى

على مثل هذا الاسلوب وبمثل هذه الـروح الطبيعيـة كان الشـاعر يحيى مجالس الانس والصفاء ويساهم فى ملتقيات الفكر والوفاء ـ وظل طول حياته ذلك الرجل الوديع الرقيق الذى يحب اصدقاءه وينصحهم ولا يبالى ـ لقـد بعث الى مرة بورقة مطوية بواسطة صديق وفتحتها فاذا بها :

وغير كثير ألف خـل وصـاحب وان عـدوا واحـدا لكثير ... (9)

واعترضنى مرة بالطريق ليقول لى : ما أروع العجز الذى قلت فيه (وانبرى أحمد جبارا قويا) وما أروع كلمة (قويـا) فلولاها لوقف وصف الرسول عند قولك (جبارا) وهو ما لا نرضاه ـ الى غير ذلك من الملاحظات التى كنا نتقبلها بصدر رحب وثغر باسم .

حقا لقد كان الشيخ الصادق الفقى وفيا لاخوانه وهو الذى وقف متحسرا لما بلغه نعى مدير الاذاعة الجهوية المرحوم عبد العزيز عشبيش وأنشد :

غاب الهزار الذى قد كان يملؤها أغـانيـا مـا لـه عـود وأوتـار
مات العزيز الذى قد كان يشملها بعطفـه فاعتـراهـا منـه ادبـار
نفديك لو يقبل الرحمان فديتنـا هيهات لا تقبل التعـويض اقـدار

ولم يتخلف الشاعر الفقى عن مواكبة أطوار التحرير ومسايرة أيام البناء ومسيرة التنمية ... ولا أنسى قصيده (آيات مجيد) الذى ألقاه بين يـدى المجاهد الاكبر بمدينة صفاقس وفيه يقول : (10)

يا فرحة الشعب اذ حفته عن كثب عناية منـك لن يحصيهـا القلـم
ما للرياض نشاوى فى نضارتهـا والورد فاح على الاغصان يبتسـم
واليـاسمين تهـادى فى خمـائله كانـه أنجـم فـى الجـو تزدحـم
والطير ترقص فى افنانهـا طربـا تشدو فتنسجـم الالحـان والنغـم

هذا هو الاديب الشاعر والمربى الكبير الشيخ الصادق الفقى الذى فارقنا يوم الجمعة 6 أفريل 1979 . ولم تفارقنا أعماله وآثاره وأخلاقه فهى باقية تشهد له بالصدق والوفاء لوطنه ودينه واخوانه ، فسلام عليه يوم ولد ، ويوم مات ، ويوم يبعث حيا.

---

(9) مجلة القلم العدد الاول جانفى 1968 .
(10) مجلة القلم العدد الرابع (الممتاز) (ديسمبر 1968) .

حوارية الظل في قيظ العالم الأسفل

شعر: أحمد الحباشة

1 ـ نافذة فى ظلال المطر :

أن تبقى الواحد فى ظل الناس
ويداك شموع
أن تشرب عمرك فى كاس
ويداك على الرأس المقطوع
أن تبقى الناتىء وحدك فى
المطر المبحوح بلا إحساس
ويداك صراخ ممنوع
أن تبقى الواقف شنقا
والنازل فى ليل الحراس
ويداك جدار مصروع
أن تبقى الواحد فى الشمس تدور
وعلى العينين نعاس
ويداك ضفاف للجوع
أن تبقى .. أن تبقى ..
ويدى يا وطنى
عصفورة ليل تتدفأ فى

وحل المطر المفجوع
همسا كان المطر الآتى
عصفورا يأتى من رئة الأنواء
مطرى يتعانق فى الظل مع الصحراء
مفطوم وجع المطر الشارد فى وجهى
لا تهرب يا صوت الانسان
متسولة أيامى فى القيظ على
فرح الاحزان
لا تغضب يا صوت الانسان
كلماتى كانت عذراء
تمتد بنهديها فى شارع
أوجهنا السوداء
كلماتى أطفال أيتام فى
أحضان الانسان
أرحام ثكلى تتدفق بالغربة
حبا كلماتى
أنهار تنساب
مع الأرق الغاضب صلبا ...

فى أرض الألغام
ألما رعبا تأتي في قافلة التفجير
صوتا ونزيفا ..
كالبحر على وجهى المحفور
لا تبعد يا صوت الانسان
ألقيت البحر على كتفيك
ومددت القبلة فى شفتيك
وعلى الشطآن دمى أمواج تقتات النور
لا تتعب يا صوت الانسان ...
فوق لهاتى ترتاح عصافيرى
وتزقزق في وجهى قيظا يحلم بالأمطار
عارية أحلام البحر على الأشجار
والموال يعود ..
كالريح تسافر فى عته الأمطار
والورد على شفتى مفقود ..
قالت : « يكفى
ذابلة كف العراف على كفى
والحظ بعيد »
قالت :
ـ والليل مغامرة في خصر الفجر ـ :
« الخيل تهاجر فى الغيم الى البحر
فاستبقوا للمد ولا تقفوا .. »
قالت :
ـ ويداها رسمان علىخارطة الجزر ـ :
« قد يبكى الرمل على البحر ..
يتضرع وجهى للنظرات »
قالت : « طوفان غضبى ..
يتعرى فى الضحكات
وجفاف الوجه بلا ظل أصوات .. »

2 ـ جسد والفجر جماجم :

أ ـ يتسلقنى مرض العصر وآتى

مدوا أيديكم وانتظروا
صومعة الانظار تدق
يا أرق التفاح على عينى
نظراتى محراب ذنوبى
فابتعدوا ..
انى اضربت عن الندم
وصفعت الصوت بضوء فمى
جردت الشجر الباكى
من يبس الامطار بلا استئذان
وأنا الظمآن ..
كان الليل فيا زمنى كن ..
الصفعة نور والجوع مواعيد
التوت جراح والحرف عناقيد
مدوا أيديكم وابتعدوا
الصفر صديقى ..
والموجة فى البحر قصيد

ب ـ يستيقظ وجهى

والبحر غبار
يسقط ظل أسفل منى
ويداك مزاميرى

يا أرض العودة للشمس
عيناك عصافيرى
ترحل والبحر يصفق فى همس
عيناك الأجراس تدق
يتفجر وجه الظل شظايا
ألقاك معى ..
كامرأة من غير مرايا
القاك معى ..
والصوت عباءة جسم
دموى الأشلاء
كالورد على شفتيه مواويل
والصيف شتاء ..
ويعود لكم ..
قيظ الصحراء من الخلف
ويعود لكم
عشق الماء الى الارض بلا خوف
اغرس كفيك ولا تخجل
بردت امعاء القمر ..
احفر شطآن النار ولا تحفل
هربت اصوات المطر
فتعالوا يا ندمائى
إنى ذوبت الليل على شفتى
وشربت الخمرة بالأحزان
أفرغت الكأس أعدت الثانى
وقطفت الوردة بالأسنان
فتعالوا ..
الفجر على الوجه خرائط إنذار
والليل مواسم شوق
للفجر المسروق من النار
للفجر الآتى من غير عمائم
للحب القادم من غير جرائم
فتعالوا نتنادم ..

3 ـ الحجاج سيفقد الذاكرة :

ينتظر الصوت رجوع صداه
فى يده شمعه
احمل وجهى تفاحا
تسألنى الارض بدمعه
وتمد لى الكف جراحا
فى حضن الآه !.
أنهض بحرا فقد الذاكرة الأخرى
وأمد لكم قلبى
سنبلة قمحا ، فقد الفلاح صباه
وعلى ساق الغيمة ياتى العصفور
تبتعد الريح
تلقيه على البحر
تأتى الشمس الى وطنى
تشربها أتعاب الليل وامضى
أفقد ذاكرتى
فى نبضات النور
ياتى الانسان حزينا
ليعود الحجاج بلا سيف
بعمامته الأخرى ...

فى ضحكات الأمواج مع الصيف
يقف الحجاج على وجع الأبصار
فى قيظ الوجد المفقود
بلباس العصر يعانقه
بعيون جففها .. ييس الأنوار
بدموع الوردة فوق النار
يأتى الحجاج بلا سيف
فى صحراء الصوت يعود الحجاج
بلا سيف
يركب حلمى للشمس حصانا
يستل من الصخر لسانا ..
ويعود ..
لم يمض الحجاج ولم يقبر
لم ينس الخطبة والمنبر
لم يفقد ذاكرة الارهاب
أوصيكم أن تقفوا
وعلى الكف شموع ..
فالحجاج على الأبواب

اوجاع تنمو تتبعثر ..
فى الضلع الأيمن والأيسر
والحجاج فم مفتوح
يهوى الأعناق تفوح
تتلوى تتكسر ..
أوصيكم .. يا أحباب غدى
أن تأتوا ..
فى حب الأرض لصوت يدى
فى ظمإ النور لبحر الحب الأكبر
فغدا ينسى الحجاج المنبر
ينسى الركح ودور الاخراج
وغدا ينسى الحجاج ...
ليعود الانسان شواطىء حب ...
أكبر من وجد الليل ..
أكبر من نهد البحر ..
أصفى من صوت المنبر ..

أحمد لحباشه

العلامة عبد الحميد بن باديس في تونس

بقلم : محمد صالح الجابري

(2)

واضافة الى ما اكتسب بن باديس (*) من شهادات علمية ، وما حصل عليه من التكوين الفكري والسياسي في رحاب الزيتونة نراه وقد عاد الى مسقط رأسه قسنطينة في سنة 1912 وقد حقق أحلاما عديدة : حقق حلم والده ووالدته اللذين كانا ينتظران رجوعه اليهما بفارغ الصبر ليرياه عالما جليلا يفاخران به ، ويرفع سمعة العائلة بعد أن تحملا فراقه ، وصبرا على غربته وشجعاه كل التشجيع كي يتوافر على طلب العلم .

وقد قص الشيخ قصة هذا الحلم على تلاميذه ذات مرة « والبشر يفيض على محياه ـ يوم أوبته من تونس حاملا شهادة العالمية قال : وحينما ولجت الدار أسرع أبي فعانقني ، وقال لأمي في سرور وابتهاج ها هو قد جاءك عالما فانطلقت من فيها زغرودة ما زلت أتذكرها ولن أنساها . وشعرت من أعماقي منذ ذلك اليوم بمبدئ عبء المسؤولية التي أحملها على عاتقي بصفتي عالما ، وبما أثرت في نفسي تلك المناسبة الباقية في ذاكرتي ما دمت حيا ... » (35).

كما حقق حلم شيخه أبو حمدان الونيسي الذي بر بمواهبه ، وبارك فطنته ووجهه نحو طلب المعرفة ووضع خطاه في الاتجاه الأقوم ، فعاد كما أحب شيخه عالما مستكملا لكل ما وجد من دروس وشهادات علمية بالجامع الأعظم شعاره في ذلك العلم للعلم ، وليس العلم للوظيف او المنصب الاداري . وحقق فيما حقق من أحلامه توقه الشخصي الى أن يصبح شيخا يتحلق حوله الطلبة من كل فج ليقوم بالواجب ويؤدي الدين الذي يثقل كاهله ، ويفي بالعهد الذي قطعه على نفسه ، فيساهم بذلك في خدمة الجزائر والعروبة والاسلام ، وتنشئة جيل على حب المبادىء التي كرس لها حياته ، عسى أن ينبلج من خلال هؤلاء صبح الثورة المنشود .

(*) تابع لما نشر في مجلة « الفكر » ع 3 ـ س 26 ـ ديسمبر 1980 .

(35) على مرحو (لمحات من حياة الشيخ بن باديس) ، الاصالة ، مارس ـ أفريل 1975 .

وقد اكتشف بن باديس أن السبيل الأوحد لتحقيق هذه الأحلام والمطامح الغزيرة هو العمل على توطيد سنة التواصل بين الزيتونة وبين أبناء الجزائر ، واعادة الجسور العلمية التى انقطعت بحلول الاستعمار وتنظيم بعثات تنطلق من قسنطينة أولا لتكون الطليعة التى تعيد بناء هذه الجسور ثم تتوالى بعدئذ وتنتظم فى أشكال جماعية ومن شأن ذلك أن يفضى بدوره الى تعدد المسالك والطرق ، وتوسيع آفاق البعثة . وللوصول الى تحقيق هذه الغاية العظيمة قرر بن باديس منذ الوهلة الأولى التى وصل فيها قسنطينة « أن يتفرغ للتدريس ، وأن يكون واسطة عقد حلقات دراسية مثل تلك التى شهدها فى تونس ، والتى فتحت عينيه على آفاق جديدة وفتحت نظره وفكره . لكن صعوبات مؤقتة منعته من تحقيق حلمه آنذاك » . (36)

ومن غير أن نتطرق الى جهاد بن باديس منذ انتصابه للتدريس ، ومواجهته للصعوبات والمناورات الاستعمارية وتغلبه عليها جميعا ، ثم مرحلة نضاله السياسى فى صفوف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعبر مختلف الصحف التى أسسها أو ساهم بالكتابة فيها مما هو معروف لدى الباحثين فان هناك جانبا من هذا النضال لا بد من الاشارة اليه بهذا الصدد ونحن نؤرخ للمرحلة التى عاشها بن باديس فى تونس وكانت من الأسباب المباشرة فى تكوين شخصيته العلمية والسياسية ، هذا الجانب هو الذى يتصل بأواصر وعلاقات الشيخ برجال تونس ، وكفاحهم الوطنى ، وصلاتهم المثلى مع عدد من الكتاب والصحفيين ونظرة التونسيين لهذه الشخصية الاسلامية المرموقة .

من المعروف أن بن باديس تصدر للتدريس بالجامع الأعظم طيلة السنة الدراسية (1911/1912) مثلما يفعل ذلك المتطوعون الجدد (37) . وقد مكنته هذه الفرصة من اكتساب خبرة عملية أهلته لان يكون مدرسا ناجحا ، كما

---

(36) محمد الميلى (ابن باديس وعروبة الجزائر) ــ دار العودة ــ بيروت 1973 ، ص 10 .

(37) يقول الشيخ الطاهر بن عاشور فى معرض حديثه عن دور المتطوعين الجدد بالجامع فى كتابه (أليس الصبح بقريب) : « أما المتطوعون فلاكثرهم دروس متعددة ، وقد بلغ دروس الواحد منهم الى عشرة واربعة عشر موزعة على الأيام » .

ساعدته على تكوين صلات علمية بالتلامذة الذين درسوا عليه . ويبدو ان العلاقة بين الشيخ وتلاميذه كانت ودية للغاية وتميزت بالتفتح مما مكنه في بعض الأحيان من اكتشاف نوابغهم ، والتنبؤ لهم بمستقبل زاخر بالآمال والمطامح .

ومن بين الذين درسوا عليه في هذه السنة الشاعر التونسي الوطني الطاهر الحداد الذي عد احد نوابغ طلبة الزيتونة . ورغم أن الحداد كان في سنته الدراسية الأولى ، فان الشيخ بن باديس أستلهم فيه بوارق نبوغ وعبقرية ، وسجل في دفتره ملاحظة تشير الى قوة هذا الحدس التربوي الذي يتميز به ، اذ شهد له في الصفحة الثانية عشر من دفتره المدرسي « بالمواظبة ، والفهم ، والأدب » . (38) .

وانطلاقا من هذه الملاحظة الموجزة والمعبرة في نفس الوقت فان بن باديس هو الذي اكتشف الطاهر الحداد (39) وهو ما يزال بعد غلاما يافعا ، وربما كان لتلك الملاحظة دورها في تفجير طاقات هذا الشاب الذي قدر له أن يقوم بدور مشهود في تاريخ النضال الوطني والعمالي .

واذا كان دور بن باديس كمدرس كان دورا محدودا لم يتعد السنة الواحدة ، بحكم الظروف الخاصة التي أوجبت عليه العودة الى بلاده ، فان صيته الذي أخترق الحدود الجزائرية مع أول بعثة علمية في اتجاه الزيتونة سنة 1913 (40) كان كفيلا بأن ينيله المكانة التي أصبح يحتلها فيما بعد وطيلة حياته في نفوس مشائخه بالذات ، وكذلك في نفوس تلاميذه ، وزملائه من الطلبة والمدرسين التونسيين ، ممن لم يتسن لهم تقدير مواهبه في مرحلة الدراسة . ورغم أن تلك البعثة الأولى كانت قد عادت أدراجها ،

(38) الطاهر الحداد (1898/1935) ولد بتونس ، ودرس بالزيتونة من سنة 1911 الى سنة 1920 حيث أحرز على التطويع ، شارك في تأسيس الحركة العمالية ، ودافع عن حقوق المرأة ، وتعرض للاضطهاد من طرف الاستعمار والرجعية . له من المؤلفات (العمال التونسيون) و (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) (خواطر) .

(39) أحمد الدرعي (دفاعا عن الحداد) تحقيق أنور بوسنينة ، دار بن عبد الله للنشر ، تونس ، 1976 ص 1976 ص 47 .

(40) صالح خرفي (الأدب الجزائري الحديث) ملحق مجلة (الثقافة) جوان – جويلية 1974 ص 37 .

ولم تمكنها الحرب العالمية الأولى التى اندلعت آنذاك من الاستقرار بتونس والانخراط فى صفوف طلبة الجامع الا أنها انتظمت بعد ذلك « طويلة النفس » بتوجيه من ابن باديس الذى ظل يرعى البعثات ، ويباركها ، ويدفع بها مواكب تلو المواكب .

ولم يلبث ان أشتهر اسمه كرائد من رواد الحركة الاصلاحية ، وباعث النهضة الجزائرية الحديثة ، وعبرت صحافة جمعية العلماء الى تونس فتقبلها القراء بارتياح وعرفوا من خلالها مدى الجهد الذى يبذله ذلك الابن الزيتونى البار ، الذى أخذ يشنها حربا شعواء فى كل الجبهات .

وما ان زار بن باديس تونس بعد غيبة طويلة عنها أواخر سنة 1936 حتى كانت شهرته قد طبقت الآفاق ، فاستقبله العلماء ، واستقبلته كل الفئات الاجتماعية استقبالا حاشدا يليق بمكانته . وأقيم حفل على شرفه فى القاعة الكبرى بالمدرسة الخلدونية يوم 11 شوال 1355 حيث ألقى خطابا علميا سياسيا ، ثم خص الجماهير التونسية الجزائرية بخطاب عام يوم 13 شوال بمقهى الجزائر بالعاصمة بمناسبة انعقاد الجلسة الأولى لجمعية الاخاء الجزائرى .

وقد نوهت الصحافة الصادرة انذاك بشخصيته العلمية ، وافردت صفحاتها للحديث عن مآثره وسجاياه ، حيث قدمته مجلة (الأفكار) بقولها : « الكلام عن الشيخ ابن باديس لا تسعه صفحات هذه المجلة ولا سفر كبير، واذا تحدث عنه مسامر فلا يمله السامعون ولو امتد بهم السمر أياما وأسابيع .

ان شخصية ابن باديس فذة فى جميع النواحى ، فاذا سمعته يخطب اعتقدت أنك أمام أشهر خطباء العالم ، واذا تحدثت اليه فى مسألة تاريخية خيل اليك أن الرجل لا يعرف الا التاريخ أو هو اختصاصى فيه . فاذا دار بينكما الحديث عن المسائل الاسلامية تجزم بانه وحيد هذا العصر .

ومع ذلك فمنظر هذا الرجل العادى لا يلفت النظر ، ولا يخبر عن مخبره شأن المصلحين حقا (41) كما نوهت جريدة (العمل الشعبى) من جهتها

---

(41) محمد الصالح المهيدى (العلامة ابن باديس يزور العاصمة التونسية) مجلة (الأفكار) ع 3 جانفى 1973 .

بشخصيته وحياته ، وحيته تحية العلماء الاجلاء قائلة عنه : « زار العاصمة ورجع الى قسنطينة العالم السلفى المصلح الجليل ، الجهبذ الأستاذ عبد الحميد بن باديس ، رئيس كل من جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، وتحرير رصيفتها (الشهاب) الزاهرة . فقوبل من الأوساط الزيتونية العلمية بحفاوة مناسبة ، وازدان مقر الخلدونية بجواهره النفيسة ودوره الغالية ... فخاطب القلوب بدل الاسماع ، وحرك المشاعر ، وأثار بصائر كثيرين من الناشئة والشيوخ . وسما بسامعيه الى شوامخ النصح الصريح ، والارشاد الثمين كمألوف رجال السلف » (42) .

وفى نفس المناسبة استقبل بن باديس من طرف أعضاء المجلة الزيتونية (43) ، وأقامت الجمعية الزيتونية مأدبة متواضعة حضرها جمع من العلماء، وتلاميذ الشيخ وأساتذته وزملائه . فقد كانت المجلة وأسرتها وأعضاء الجمعية المشرفة على اصدارها على صلة وثيقة وحميمة بالشيخ ، الذى كان بادر الى التنويه بصدور المجلة ، ودعا الى تعزيزها وخصها بالنصح والدعم المعنوى ، فكتب ابان ظهورها يقول : « يحق لى وأنا تلميذ من تلاميذ الزيتونة ، أن اغتبط بالمجلة الزيتونية غبطة خاصة . ويحق لى ـ وأنا جندى من جنود الاصلاح الاسلامى العام ـ أن أسر سرورا خاصا بتعزز معاقل الاصلاح بها » (44) .

ثم يواصل الاشادة بظهور هذه الحركة الدالة على روح الاصلاح والرغبة فيه والاتجاه اليه ، وهو الاصلاح الذى طالما دعا الشيخ بن باديس الى وجوب احداثه لتساير برامج التعليم الزيتونية مختلف التطورات

---

(42) (العمل الشعبى) 11 جانفى 1937 .

(43) صدرت سنة 1936 لصاحبها محمد الشاذلى بن القاضى وتوقفت عن الصدور سنة 1955 .

(44) نقلت هذه الفقرات الخاصة بتنويه بن باديس بالمجلة الزيتونية عن مقال للشيخ أحمد حمانى صدر بمجلة (الاصالة) ماى 1978 ص 94 ، وقد أشار حمانى الى أن هذه الاستشهادات الواردة فى مقاله بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاة الشيخ الشاذلى بن القاضى مستخرجة من مقال للشيخ بن باديس ورد فى العدد العاشر من المجلد الثانى من (البصائر) على اننا لم نتمكن من الحصول على هذا العدد بكل المكتبات الوطنية التونسية .

المعاصرة « فجاءت المجلة الزيتونية تعلن الاصلاح ، وتحمل رايته ، وتدعو اليه باسم جامع الزيتونة المعمور ، فكان فوزا مبينا للاصلاح والمصلحين ، ونصرا عظيما للاسلام والمسلمين » .

ويخص الشيخ فى مقالــه المشار اليه محررى المجلـة بكلمة تقدير وود قائلا : « وقد ازدانت عزتها بأسماء أربعـة من خيرة الشبـان العامليـن : الأستاذ محمد الشاذلى بن القاضى ، والأستاذ محمد الهادى بن القاضـى ، وكنت تلقيت شيئا من البلاغة عن المنعم والدهما ، والأستاذ محمد المختار بن محمود ، والأستاذ الطاهر القصـــار .. » .

وفى مجال التوجيه ، وما يريده بـن باديس لهذه المجلـة من الرســوخ والدوام ، ومساوقة التيارات العلمية والفكرية ، والانفتاح على المعـارف الانسانية ، وعلى تيارات الشباب بصفة خاصــة نجده يسكب النصح فـى آذان المشرفين عليها قائلا : « ان اسم الزيتونة » اسم اسلامى علمى تاريخى عظيم ، فيجب أن تكون المجلة الزيتونية ممثلة له ، مجددة لعهده ..

وانى أقترح على أخوانى القائمين بها أن يضموا الى قلم تحريرها رجـالا من الزيتونيين الذين يعرفون بعض اللغات الغربيـة ولهـم خبرة بحركـات العصر من وراء البحر ، فان العلوم والآداب والفنون تراث الانسانية كلها ، لا تستقل فيها أمة عن أمة ، وأكمل الامم ازاءها من تحسن كيف تحافظ على حسنها ، وتستفيد من حسن غيرها .

لهـذه الأسباب كلها كانت العلاقة جد وطيــدة بين بـن باديس وبيـن النخبة الزيتونية . وعلى الرغم من انقطاعه عن زيارة تونس مدة طويلة منذ دراسته وحتى سنة 1936 كان الشيخ لا ينى يتابع عن كثب كل ما يحدث فى الزيتونـة من تطـورات ، مطالبا بالاصلاح ، متحملا مع المتحمليـن عـبء مسؤولية تطوير هذه المؤسسة العلميـة التى كانت خير ظهير لحركتـه ، وخير معين لتخريج الأفواج العلمية الجزائريـة التى قامت بأهم دور فـى الاصلاح ، وواصلت رسالة بن باديس الخالدة .

ـ يتبـع ـ

محمد صالح الجابـرى

الـزمن الصدئ !

قصة : أبي بكر العيادي

شعور غريب يكتنفك حتى تكاد عيناك تنبجسان دمعا سخيا ، لا تذكر فيما مضى من حياتك انك حضرت مجلسا يضم هذا العدد الضخم من الشخصيات . اجسام مفلطحة . وجوه محمرة . عيون مشوهة النظر خلف زجاج سميك كقعر القوارير . بدلات أنيقة وربطات عنق منتقاة بعد تردد واحذية لماعة تقرع ارضية القاعة فكيف اذا جاؤوا اليوم من اجلك . من اجل هذا الحدث الخطير فى حياتك .

اين انت يا أبى يا حامد بن سعيد ؟ أين أنت لتشهد ابنك وهو محط انظار هذا الحشد الهائل من شخصيات البلاد . انى اراك . اراك تلملم بقايا عظامك لترسم بسمة من تحت لحدك . بسمة فيها رضاك وهى كل أملك . مازلت أذكر كلامك يا أبى . حفظته عن ظهر قلب . كنت تقول لى :

ــ عليك بطلب العلم يا ولدى . هو وحده الذى يكسبك رزقك .

كان الرزق مشكلتك منذ ان وعيت .

وعندما سألتك عن الارض ارسلت زفرة طويلة وقلت :

ــ قتلوا فينا حب الارض .

لم افهم آنئذ معنى كلامك ولكنى ادركت ببديهة الطفل المطيع انك على حق . كم تألمت لالمك وانت تلقى نظرة أخيرة على الارض التى ارضعتنا من ضرعها أحوالا . ترقرقت على عينى دمعة وانحدرت على التربة تودعها . تمنيت لو كانت بحجم البحر لتروى ارضنا وتعيد لها الحياة.سمعت صدرك يهدر بمشاعر ظلت

حبيسة فيما بقيت تنوء بكلام قتلته الرهبة فى عينيك . احاسيس شتى ظلت تضطرم فى صدرك وتوغره نقمة وتسحقه حسدة حتى أتت عليه .

أتذكر يا أبى يوم عدت الى البيت تجر رجليك بعد طواف مرير بالمدينة ارتميت على الحصير واسندت ظهرك الى الحائط فتمايل الحائط وارتعد السقف وكاد يودعنا لعناق واعد برحلة ابدية . لعنت الحظ الذى جعل فى طريقك سماسرة ومحتالين صرفوا مالك فى بيت آيل للسقوط بحى عطن . كنت فى غاية الغضب يومها . قلت لى : العلم هو مفتاح الحياة . يجب ان تتعلم . لا شىء غير العلم يمنحك ندية من احتقرونى ونهرونى ونظروا الى بامتعاض وقرف .

أين أنت يا أبى لتشهد كيف يستقطب ولدك أنظار الناس ، حتى الصحفيين بمفكراتهم ومسجلاتهم ومصوراتهم يرنون الى باهتمام . رجال الشرطة قدمواهم أيضا لكى لا ينخرم الأمن لكثرة الوافدين .

* * *

أذرع الرياح تدفعك كورقة ذابلة مرتعشة تهيم فوق الارصفة . وقع خطى تسرع . تدوس أوراق الشجر اليابسة وتقطع صمت الطريق الخالية الا من بعض المارة .

يهتف أحدهم مذعورا :

ـ الشرطة .

ويدبر مسرعا . يتشتت جمع المارة فى ذعر كدجاج يهم صاحب الحوش باختيار احداها ذبيحة يومه . تواصل طريقك بغير اكتراث . لم الفرار ؟ أما جعلت الشرطة لحماية المواطنين ؟ فجأة تتوقف سيارة وينزل منها ثلاثة أعوان يحاصرونك .

ـ قف ! أوراقك .

يطوقونك بنظرات شزراء وانت تنقل يديك فى جيوبك لتخرج بطاقة مهترئة بفعل الطى . يجردك منها الاول كانك لا تستحقها ويسألك الثانى :

ـ ماذا تعمل ؟

وعندما تفتح فمك مغمغما :

ـ مكتوب فى البطاقة .

ينالك الثالث بصفعة ظلت تدوى فى أذنيك ويهتز لها جسمك كانما سلط عليه تيار ذو ضغط عال .

ـ عاطـل ووقـــح .

ويجرونك كما كنت تجر النعاج للجز . يا للمهانة . ويلقون بك فى مؤخرة الفلكس فاثن كما تلقى النفايات . وتتكدس مع اخوة لـك فى التهمة . وجـوه خريفية يابسة طالما تقاطعت طرقكم جريا وراء لقمة مغموسة بالعرق .

الرزق اصبح مشكلتك انت ايضا مذ أسبل أبوك أجفانه واورثـك أمـك العليلة وأختا صغيرة تحلم بالعودة الى الارض حيث ارجوحتها بشجرة التوت الوارفة . حاولت أن تستفيد مما تعلمت اثر انقطاعك . طرقت أبوابا ورجوت . وزرت مكاتب وأملت . وحبرت مكاتيب وانتظرت حتى جف المـاء فى شفتيك وتيبست قشرة وجهك . لامال ولا وسيط يكون لك عند الاعيان زلفى . ازدادت حالة امك سوءا واعتصر الجوع امعاءكم وأفقت ذات صباح لتجد نفسك تغادر السوق المركزية بقفة ثقيلة وتقتفى كالكلب الوفى خطى سيدة تنضـح عطرا رخيصا . ولكنك صرت فيما بعد كلبا مطاردا تختطف بالكار عظما من انيـاب الذئاب الكاسرة . فتحلوت الى سوق الجملة حيث بعض الطمأنينة . وفى غبشة كل فجر تمضى لاهثا وراء القوت . تكلف جسمك الطرى اكثر مما يطيق لتظفر بمقابل بخس وبقايا خضر وغلال تجمعها فى قفتك المهدئة وتعرضها كديسات على قارعة نهج باب الفلة . وفى المساء تواصل رسم ملامح مأساتك على ابواب المعامل والشركات . وتعود كل يوم خائبا رغـم سهـولة شـرط الانتـداب وبساطته : فقط أن تكون فتـــاة !! .

تتوقف السيارة . تصطاد مسحوقا آخر سرعان ما تزدرده فى جوفها وتمضى تشق الشارع الذى هللت مصابيحه بمرورها .

تعانق ببصرك هذه الوجوه المنكمشة كأنداء عجائز . مثلك مشبـوه فيهم . لانهم عاطلون عن العمل رسميا . مثلك طفيليون لان ما يقومون به طوال يومهم وثلث ليلهم غير معترف به رسميا . طفيليون كنبات النجم الذى كنت تقتلعه من احواض الخضر . مجرد تنقلهم فى المدينة تسكع فى الطريق العـام يحمل فى طياته خطرا يهدد أمن المواطن . العمل وحده يمنحهم حقهم كاملا كمواطنين. يجب ان يتحولوا الى فتيات حتى لا يظلوا كصراصير قميئة لائذة بزاوية عفنة .

تضحك . ارتسمت امامك صورتك وانت مرتد فستانا لا يستر الركبتين . تقهقه . يحاول شرطى اسكاتك . تتصامم وتردد اهزوجة طالما تغنى بها الاطفال فى ازقة الحى المكتظة :

شــوف آش عملت هــا السردينــة وفيهـــا المــاكينــــات
الراجــل قــاعد فــى تركينـــة وتخـــدم كـــان البنـــات

يصرخ الشرطى فى وجهك : اخرس . تتحداه . يسرى اللحـن فى جسـد المجموعة يدغدغهم يحركهم . يثيرهم كذباب حط على جروحهم فينفسون كربهم الدفين.وتجول العصى تقرع الرؤوس ويسود الظلام ويعود السكون و «يستتب الامــن » . وتفتح عينيك فى المركز على كلام العون :

هؤلاء مشبوه فيهم.اما هذا فمروج لشعارات مناوئة للنظام وداع الى الفوضى

* * *

تتحرك كجثة انحسرت عنها أكفانها . تحس رأسـك جمجمة فـوق عروق نافرة . تسافر العيون وتتقارب الرؤوس وتزحف الهمسات . فـلا النظرات تلسعك ولا الهمهمات تزعجك .

ـ مسعود بن حامد بن سعيد !

نم يا أبى قرير العين . ما بقى شىء نخشى زواله . ماتت أمى وتزوجت أختى ولم يبق من العائلة غيرى ليعيد لها اعتبارها . نم فى رمسك مطمئنا يـا أبى . سأحدثهم عن دارنا الخالية وعن شجرة التوت اليابسة وعن الغيمة التى لم تعد تهطل مطرا وعن البسمة المنتحرة على وجوه الاطفال سأعتصر من وجوههم الماء الذى رشفوه من أرضنا . سألقى فى أمعائهم الداء الذى نهش جسـم أمى . سأصب فى حلقهم المرارة التى كتمت انفاسك .

ـ مسعود بن حامد بن سعيد !

تتمتـــم :

ـ حاضـــر .

فيهمســـون فى اذنــك :

ـ قــل حاضـر سيـــدى .

تزعــق :

ـ لا سيــد الا سيــد الخلــق .

أبــو بكـــر العيـادى

رادس فى 12 ـ 9 ـ 1980

حذاء في مجلس الأمن ...!

شعر : ممدوح مولود
(حلب)

قالوا ... حذاؤك قد ازرت به الرقع ... وكاد من وطأة الأيام ينخلع

. . . .

لئن أثار حذائي اليوم سخرية ... وراح بالهزء يغري شكله البشع
فلا أراه مثيرا أي هاجسة ، ... من الظنون صفاء النفس ينتزع
به أراني في بشر وفي رغد ... وفي حبور جذور الحزن يقتلع
هو اشتراكية جاءت مساوية ... بين الجميع ، ومهلا أيها الجشع !
فما حذائي لعين مثلما زعموا ! ... وليس بالمقرف المزري كما بدعوا !
لعلهم لم يعوا قدرا له أبدا ... ولو وعوا قدره ، في رهبة خشعوا
قد عز عندي حتى جل مرتبة ، ... وما يعز على هاماتنا نضع
فلا غرابة إن شوهدت منتعلا ... إياه ، أو فوق رأسي انني أضع
وما الغرابة بين الرأس أو قدم ... في عالم فيه للأضداد متسع ؟

. . . .

فكلنا في حساب الدهر أحذية ... كما يشاء بها الامجاد يصطنع
قد عز عندي .. فلا ألقى به أبدا ... وكيف عهدا به ألقى وأقتلع ؟!

. . . .

وربما ثار – مما قيل – بي ضحك ... وطالما نازعتنا الضحكة البدع !
كأنه بات في الاحداث كارثة ... يحق من أجلها الوسواس والفزع
فكيف لا يتنادى الكون في عجل ؟ ... وكيف لا مجلس للأمن يجتمع ؟!
فها هنا في جحيم البؤس فاجعة ... لها الدموع نياط القلب تقتطع
هنا مصاب أليم هز أفئدة ... كانت نياما بها الاحلام تضطجع
وها هنا محنة كبرى مروعة ... بها الضمائر قد أودى بها الهلع

ماذا دهى الكون فاهتز الضمير به ؟ — وراح منه لهيب السخط ينـدلـع
يا للحذاء .! لقد ريع الزمان به — وجاء عدوا الى المأساة يستمع
كأنه بات فى الاسماع ملحمة — ومن بها فى رحاب الكون ما سمعوا؟!
كأنه بات فوق الرأس مطرقة — ومن بها من ذوى الوجدان ما قرعوا!؟
يا للحذاء .! لقد هز الزمان فما — اليه من باحث إلا ويندفع
أكاد ألقى دموع الحزن جارية — كأنما هم بما لاقوه قد فجعوا
متى ترى كان دمع الذئب منسكبا ؟! — وكيف وجدانه للرفق يتسع ؟!
أيرخص الدمع .! يهوى دونما ثمن — وهو الذى عن قبول الذل يمتنع ؟
يا للحذاء اذا ما قد غلا ثمنا ! — وراح فوق ارتفاع الكبر يرتفع
فلا تلوموا حذائى إن غدا مزقا — وعضه الدهر حتى كاد ينخلع
ولا تغرنكم الاثواب زاهية — ولا بريق سراب حين يلتمع
ففى يقينى ما الميزان احذية — ولا الثياب ، فهذى كلها خدع
ولا تقيم قدر الناس احذية — ولا الملابس والمال الذى جمعوا
ولا القصور الى الجوزاء شاهقة — ولا النعيم الذى فى ظله رتعوا
كل الثياب التى تلقاك زائفة — أصل السمو التقى والبر والورع
فلا تقولوا حذائى كله رقع — انى لراض به حالا ومقتنع .

ممدوح مولود
(حلب)

في العدد القادم ننشر

الجزء الثالث من دراسة

العلامة عبد الحميد بن باديس فى تونس

بقلم : الاستاذ محمد صالح الجابرى

الحياة الأدبية والفكرية في القرن 18 و19 بولاية الوطن القبلي

د. الهادي حمودة الغزي

– 4 – (*)

ولئن كان الشعر الديني طابعا مميزا لشعراء القرن الثامن عشر والتاسع عشر في تونس فان ولاية الوطن القبلي قد تميزت به على وجه الخصوص وقد سار في اتجاهات ثلاثة : مدح الرسول والصحابة ، ثم مدح الاولياء والوليات، ثم الشعر الطرقي أو قل الشعر الصوفي الملتزم إن صح هذا التعبير وسبيله الطرق الصوفية المتعارفة في تونس كالقادرية والعيساوية وغيرها . ومرد ذلك يرجع الى طبيعة هذه الجهة وظروفها الطبيعية لكثرة سواحلها وتعدد رباطاتها وتعرضها منذ فجر الفتح الاسلامي الى نهاية القرن الماضي للغزوات الصليبية وهجمات القراصنة الخاطفة مما كثف في صفوف سكانها المجاهدين والمرابطين وترتب على ذلك كثرة زوايا الاولياء ومقامات الصالحين قال الرقيق القيرواني في تاريخه عن شبه جزيرة شريك :« ولم تخل هذه الجزيرة من عابد (49) وصالح » .

لذلك لا نعجب حين رأينا شعراء يتفرغون تفرغا كاملا الى الجانب الديني ويستغرقون استغراقا كاملا في ابتهالاتهم وتناجيهم الديني جاعلين الرسول والاولياء – الذين في اعتقادهم بقايا نبوية محمدية – محاور لما كانوا ينظمون مديحا وابتهالات ومراثي ، على أن هذا الشعر الديني لم يكن كله أصيلا تولد من معاناة وتجربة فكثيرا ما خانت الشاعرية صاحبها وكثيرا ما استعصت اللغة عليه أو القوافي وتزيلت وتمنعت . وليس بالضرورة أن تحصل

(*) تابع لما نشر بالفكر العدد 10 – س 25 – جويلية 1980 .

(49) الحلل السندسية الجزء الاول ، القسم الثاني ص 552 .

الجودة بمجرد الصدق فى العواطف والتجاوب الملح ، ذلك أن العمل الفنى الابداعى رحلة معقدة لا تؤمن سلامتها لا النفس الكبيرة ولا العاطفة المهتاجة فهذا الشيخ الحاج قاسم الزوارى قد تفجع على الولية الصالحة الخضراء المراكشية حين توفاها الله ودفنت ببلدته سنة 1115هـ.وحاول أن يضمن أوعته فى مرثية وصلت الى ستة وثلاثين بيتا ولكن معظمها إن لم تكن كلها ، منظومة كسائر المنظومات وأصدق تعريف لها ما عرف قدامة به الشعر . إن أحزان الشاعر على وليته الفقيدة ظاهرة ولكنها أحزان متعثرة تقطعت بها الكلمات القاصرة والبحر المضطرب الاوزان والاسلوب الضعيف . وهذه بعض الابيات وأعد القارىء أنى سأنتقى وسأختار ليعلم بقية القصيدة كيف كانت بناء ونسجا : (50)

وبدا النداء بأن بدر الأفق قد ... قطن اللحود فيا لها من نكبة
ما بين ملتهف كئيب صارخ ... ومهرول نحو الدعاء مصوت
إن الفضيلة ستنا « الخضراء » قد ... صار التراب ضجيعها فى حفرة
أسفا ودمع العين مسكوب على ... صحن الخدود ، مجللا ، بالغصة
والنفس بالصعد تئن وتلتوى ... فرقا مديدا من فراق الدرة
أم الكرامات الجزيلة والنهى ... والقرب والروض المنيف المبهت
شاقت لها ألبابنا وتمايلت ... منا النفوس الهائمات وحلت
وتصدعت أوصالنا ضجرا على ... أمل المنى سيف الاله العمدة
وتلهفت أنفاسنا وتقلقلت ... منا القلوب وزاد شوق الفرقة
يشكو لها العانى الضعيف الملتجى ... يأوى لها اللهفان حين الحاجة
آه على ما قد حواه الترب فى ... شهر الحجيج ، ويوم نصف حلت
من عام ألف واحد مع عشرة ... مع نصفها مع واحد فى العدة
فالترب بالأنوار حف ولحده ... بالسعد ساد حجاره وبمدرة

على أن الشعر الدينى كما سبق أن رأينا فيه الكثير من الجودة والنضج خاصة ما كان متصلا بالرسول صلى الله عليه وسلم ، واذا كنا قد عرفنا شيئا

---

(50) انظر النص المدرج فى جريدة « بلادى » بتاريخ 6 مارس 1978 ص 24 بقلم عبد الرحمن عبد اللطيف .

عن شعر محمد المنزلى الدينى وتخميسه لقصيدة البردة ونجاحه فى ذلك التخميس فان شاعرا من ولاية نابل أيضا كان قد خمس من قبله المنفرجة النونية ونجح فيها وكان سابقا للشيخ الزوارى مما يدلنا على أن عصر النهضة لم يسر فيه شعراء ولاية نابل سيرا مطردا زد على ذلك أن التشطير والتخميس فى خصوص الشعر الدينى عادة لا يكون رياضة قلمية بقدر ما يكون لمطلب ملح وهذا ما يفسر لنا مخمس المنفرجة النونية وهو محمد المعروف بالصغير داود فقد مرض واشتد به المرض فما كان منه إلا أن التجأ الى الله ولم يلبث أن شفى صدره ومن ذلك التشطير قوله : (51)

أحبتى لأطبا الوقت دلونى فقلت : حسبى إلهى مبتدى كونى
مغيث أيوب والكافى لذى النون ينيلنى فرجا بالكاف والنون
لا عن سؤال تعالى الله أنشانا فى أحسن الخلق سوانا وأبدانا
وإنه واحد فى الملك أنبانا كذاك سبحانه إن شاء أبرانا

أراكم إن أراد الموت تحيونى

هبنى جزعت لما ألقاه من قلق فالعفو حلية منشى الناس من علق
أما ترى الليل إذ يجلوه بالشفق فهو المهيمن رب الناس والفلق

ففى حماه محل الفضل حلونى

وقد كان ذكر صاحب الذيل أن الصغير داود (له معرفة بمناقب الصالحين وأخبار الناس وخدم جناب المصطفى صلى الله عليه وسلم بقصائد ومنظومات منها تخميسه بردة الشيخ البصيرى فمنها قوله) : (52)

تنفى الهوى وتريق الدمع من مقل وحال خديك لا ينفك فى سلل
لا والذى خلق الانسان من علق لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل

ولا أرقت لذكر البان والعلم

واذا راجعنا تشطيرات محمد المنزلى لبردة البصيرى وقارناها بتشطيرة سلفه الصغير داود ، هذه تبين كيف تطورت القوافى على يد شعراء هذه

---

(51) الذيل ص 148 .
(52) المصدر نفسه ص 147 .

الولاية فبقدر تقلقل النسج في شعر الشعراء الاوائل رأينا من بعد كيف تمكن الشاعر التونسى لولاية نابل من طول النفس وتداعى القوافى تداعيا جميلا . ولعل الجهود المبذولة فى فهرسة التراث المخطوط سيزيدنا تصورا للحركة الشعرية فى هذه الجهة إن شاء الله .

(II) والى جانب تلك الاجواء العقلية والعلمية التى عرفناها عند اسماعيل التميمى وأبى الحسن على النابلى وكذلك الاجواء الخاصة بالادب الدينى عند محمد المنزلى وغيره نجد لونا آخر فى الاجواء الادبية لعل من أبرز أصحابها أحمد القليبى بقصيدته الوطنية التى قالها عندما استولت فرنسا على الجزائر.

ولقد كنا أول من عثر عليها فى موضعها (53) حين أعددنا أطروحتنا عن الشعر التونسى 1969 وعددناها فى قسم مراثى المدن (54) .

ونظرا الى أهميتها باعتبارها وثيقة أدبية داخلة فى الادب القومى المبكر الظهور فى تونس فاننا نسوقها هنا وننبه القارىء الى أن يقارن بين نظرة هذا الشاعر الفقيه التونسى أحمد القليبى والشاعر محمد الشاهد (55) فى المسألة الجزائرية وكيف كان موقف كل منهما إزاء ذلك الحدث المريع « قال صاحب الكنش (ورقة 85 وجه) : « وللفقيه سيدى أحمد القليبى يرثى الجزائر أعادها الله للاسلام وكان دخول النصرانى لها دمره الله يوم الاربعاء ستة عشر مضين من محرم الحرام سنة 1246 ستة وأربعين ومائتين وألف » :

عظم الله أجركم فى الجزائر	وجزاكم برزئها أجر صابر
فهو والله فى البلاد لحق	أن تعزى به وتبكى الجزائر
ولحق علينا لبس السواد	بعد وقعتها وحلق الغدائر
فليبك من يشاء البكاء فليس	بعزيز علينا فقد النواظر
ولتكن مقلة الحزين عليها	فى انتباه فما النوم كساهر
هذه الروم أقبلت تتغالى	وأرادت على الأنام التظاهر
بدأوا بالجزائر حيث كانت	فى نحورهم كنبلة واتر

---

(53) كنش مخطوط بمكتبة الخلدونية تحت رقم 3259 والغريب أن بعضا من المهتمين التونسيين أخذ ذلك عنا ونشر القصيدة دون أن يشير الينا وكان ذلك بعد نشر كتابنا (الادب التونسى فى العهد الحسينى 1705 ـ 1881) مما يؤكد انتفاعه بما اثبتنا من مراجع .

(54) الادب التونسى للمؤلف ، الدار التونسية للنشر 1972 ص 59 .

(55) المصدر السابق ص 60 .

وأعدوا لحر بها ما استطاعوا   من خيول وعدة وعساكر
ورموها برمية فصموها   وعموها ، وما رأوا غير دابر
ألقت الناس لهم كل سيف   كان قبل الورود في الغمد صادر
دخلوها وملكوها خداعا   ودنوا من أميرها دون زاجر
وتولوا خزانة لوحوتها   يد قارون لم تزل تتفاخر
وأقاموا علامة الكفر فيها   وأطاعتهم أناس فواجر
ومحوا حسنها كان لم تكن   فيها لله قبل ذاك شعائر
وكأن لم تكن تصول فيها ملوك   عندهم نازل سواء وطائر
وكأن لم تقدم فيها رجال   بحقوق الجهاد في كل فاجر
وكأن لم تدن ولاء وعزلا   لمجير من الأنام وجائر
قدر الله أن تعود لنقص   بعد هذا التمام والله قادر
فهي بعد علوها في الحضيض   وهي بعد شبابها في الغوابر
أخذتها الأعدا وماذا يفيد   إن بكى منشد وإن ناح شاعر
إن تعيشون (كذا) بعدها سترون   ما به تحسدون أهل المقابر
ذلة وإهانة وعناء   وكفاهم بمسلم طوع كافر
وتقولون إذ فشلتم سوف   يأتي الله عقبى ذاك بثائر
فنعم إن بلغتم ما سألتم   بعد أن تبلغ القلوب الحناجر
ما يكون اعتذاركم بعد أسر   لا ترون له مفاداة عاذر
وبقيتم وأهلكم طوع من لم   يرض إن غضبوا بغير التهاجر
هذه الموت والبلاء عظيم   والمصاب الذي يضيق الخواطر
فاعملوا الحزم ما استطعم إن   هذا الزمان بالناس غادر
واستقيموا على طريقة رفق   واتفاق وانتظموا كالجواهر
إنها نار فتنة أوقدوها   بيدي نجس وسموه طاهر
كافر ، فاجر ، ظلوم ، خؤون   عاضد لأولى الضلال ، وناصر
جاء من حضرة الخليفة يترأى   باختلاق أوامر ، وبشائر
أضحك الناس ساعة ثم أبكى   من له مقلة بدمع تحادر
وأدان الخداع في الناس فهو   لم يزل ناهيا بشر وآمر
فاسألوا الله بالنبي عساها   أن تدور به عليه الدوائر

« قال منشاها (كذا) انتهت عن عجز وتقصير والحمد لله اللطيف الخبير » (ورقة 86 وجه) .

فالقصيدة تمثل عزاء وطنيا حقا (عظم الله أجركم فى الجزائر) ولكنه عزاء مؤقت لان الامة العربية بامتدادها فى الجزائر لن تكون عقيما هذا هو رأى أهل عصر الشاعر ولئن شايعهم فانه كان أوضح رؤيا منهم وكأنه ينظر بعين الغيب فى ذلك ولم يخف غضبه على من أطاعوا الدخيل وساروا فى ركاب الفجور :

وتقولون إذ فشلتم سوف يأتى الله عقبى ذاك بثائر
فنعم إن بلغتم ما سألتم بعد أن تبلغ القلوب الحناجر

نعم لم يبلغ الشعب الجزائرى ما سأل إلا بعد أن بلغت القلوب الحناجر وقدم لاستقلاله مليون شهيد قربانا .

أما حملة الشاعر على مبعوث الخليفة واتهامه والطعن عليه ووصفه بالكفر ، والخيانة ، والخداع ، والفجور فذلك ما لم يكشف عنه التاريخ . ومن المرجح أن الشاعر كان على علم ببعض الدواخل للخلافة العثمانية متمثلة فى بعض مبعوثيها على أنهم موفدون للانقاذ فكانوا شر الوافدين فلذلك كانت غضبته وسخطه عليه .

ولسنا ندرى هل الشاعر قال شعرا آخر فى مثل هذا الموضوع والمهم هو أن شعراء ولاية نابل كانت أصواتهم تتجاوز الحدود وتتجاوب مع أقطار المغرب العربى وأن هذا اللون من الشعر القومى حرى بالوقوف عنده والبحث فيه لو عثرنا على الكثير من نصوصه غير أن فنونا أخرى نعثر عليها وهى لا تقل قيمة ، عند شاعر متفرد فى ولاية نابل جمع بين الشعر والنثر فى أدبه والجد والهزل فى حياته الطريفة وهو أبو عبد الله محمد بن محمد ماضور السليمانى الاندلسى القيسى الثغرى الاشبيلى ؛ كان أسلافه من حماة الثغور وجده هنالك أبو القاسم أحمد بن يحيى بن محمد بن عيسى بن منظور عالم اشبيلية وقاضيها المتوفى سنة 520 هـ. (56) .

هاجر آباؤه فى جملة المهاجرين الفارين بدينهم 1009 هـ. فنزلوا أول أمرهم بقرية من قرى الوطن القبلى هى « الجديده » ثم تحولوا الى مقرهم المعروف اليوم « مدينة سليمان » وقد كان اسم جدهم المهاجر الاول الحاج محمد ماضور وقد تسلسل من نسله المحمدين ستة كان شاعرنا خامسهم (57) .

د . الهادى حموده الغزى

– يتبع –

(56) تونس وجامع الزيتونة ط 1971 الخضر حسين ص 94 .
(57) المصدر نفسه ص 94 .

أجمل صورة

شعر : مصطفى النجار
(حلب)

صور الحياة تمر فى باب الفصول الأربعه
وتمر من باب الذهول ...
• بنت مضرجة الخدود تغازل القمر الخجول
وحديقة يأوى اليها (القحط) ذات عشية خضراء .
• وفتى تأبط شوقه ودفاتر الأحلام ..
يركض باتجاه الشمس والشمس حصان
• ومواكب الغزلان .. أواه يا مواكب الغزلان ؟
• ما باله الغريد ينتظر الحبيب ممزقا أوتاره
باللحظة الأخيره ؟
• قالت سليمى والحصاد يدور فى عز الظهيره
يا ابن عمي
موعد العشاق فى الصيف الجديد ...
حينما تنمو الضفيره .
(إنها أجمل صوره ؟)

في العدد القادم ننشر
الجزء الثانى من دراسة
إعجاز القرآن يظهر فى العقل الالكترونى
بقلم الدكتور : رشاد خليفة
تعريب : الاستاذ توفيق بن سلمونه

المرأة والمجلس البلدي

بقلم : فتحية العروبي

كثيرا ما تحملت المرأة المشاق من أجل صنع الرجل باعتبارها أما وزوجا فهي تحتضنه طفلا وتتحمل في سبيله سهر الليالي منذ ولادته الى أن يبلغ أشده .. ترعاه طفلا بين أحضانها فتغدق من حنانها الشيء الكثير وترعاه زوجا فتمسح عن جبينه تعب السنين .

فهي اذن المسؤولة الأولى عن سقوطه في الرذيلة أو اعتلائه المناصب الكبيرة . لذا وجب احترامها كما ذكر في آيات الله العديدة وكما أوصى الرسول (صلعم) في خطبة الوداع اذ قال :

« استوصوا بالنساء خيرا فانهن لديكم أعوان وقد أخذتموهن بامانة الله » .

ولكن رجل اليوم لا يزال ينظر الى القولة المأثورة « وراء كل رجل عظيم امرأة » على أن المرأة دائما من الخلف .. لا يحق لها أن تشارك الرجل في كل المهام السياسية . فهو يقبلها ويعترف بها كأنثى ولكنه يرفضها ككائن حي كرم في التشريع بتكاليف مثله تماما .. بل ويرفض أن تنافسه حتى وان كانت المنافسة مثمرة وبناءة . وقد اتضح ذلك عندما جازفت المرأة كما سبق لها وجازفت في الانتخابات التشريعية فكانت النتيجة سلبية اهتزت لها جميع الصحف حتى خارج الحدود التونسية فانتقدوا ذلك الرجل الذي لا يزال يرفض الاعتراف بنصفه .. انه يعيش القرن العشرين وعقله لم يتخلص بعد من رواسب القرون الوسطى .

وصرخت المرأة صرخة احتجاج ثم رفعت الشكوى الى محررها وحامي حمى الأمة فدوى صوتها في الاركان : « والله لئن لم ينجحن هذه المرة لغيرت القانون .. » وكانت الفرحة العارمة فانطلقن بحماس يركضن وراء المواطنات ويعقدن الاجتماعات .. وجاء اليوم الموعود .. فكانت النتيجة .. ولم تنهزم المرأة هذه المرة ولكنها لم تنصر بالرغم من توصيات الرئيس والوزير الأول .

(2)

ماذا جرى للرجل يا ترى . ؟ هل عاد الى العهود الأولى أيام كانت المرأة لا حول لها ولا قوة .؟ أيام كانت تورث كما يورث المتاع لا أعتقد *ذلك والحال أن أباها على « رأسها » . لا . حذار أيها الرجل الكريم من العودة* الى الوراء ، فالذى حررها من القيود البالية لا يزال على عهده لها وستبقى المرأة دوما صانعة الرجال على مر الازمان باعتبارها الأم والزوجة وسيبقى الفخر والفضل دوما لها مهما بلغت سلطة الاشراف عند الرجل .

وخير ما أختتم به كلمتي قول الباحث « جورج طرابيشى » في تحليله لأدب توفيق الحكيم (I) لقد جاهدت شهرزاد ألف ليلة وليلة حتى تصنع شهريار ، حتى تنقله من « طور اللعب بالاشياء الى طور التفكير بالاشياء » حتى تستبدل سواد قلبه الى بياض ونقاء وقد حق لها — بعد أن أدت رسالتها وخلقت بالحب رجلا قادرا على الحب — أن تتمتع بثمار عملها العظيم .

ان شهريار من صنعها ولها يجب أن يكون ، ولكن شهريار بعد أن فتحت عيناه بات يريد أن يرى كل شيء بل أن يرى ما لا يرى ، انه وقد انطلق فلا يمكن أن يوقفه بعد شيء ولا حتى المرأة التى خلقته .

والمخلوق أول ما يتمرد على خالقه . تماما كالأعمى الذى يستصغر أول ما يستصغر اليد التى فتحت عينيه .

فتحية العروسي

(I) لعبة الحلم والواقع : دراسة فى أدب توفيق الحكيم ص 72 الكاتب جورج طرابيشى .

رجـع الصـّـدى ...

شعر : رجب بن مهني

لَمْ تُنْسِنِي كَلِمَاتُكِ الغَرّاءُ أَنْ ... مَاسَ الهَوَى وَمَطَامِحَ العُشّاقِ
يَامَنْ جَعَلْتُ بِحُبِّهَا وَجَمَالِهَا ... قَلْبِي أَسِيرًا فِي هَوَى الأَحْدَاقِ
وَجَمَعْتُ مِنْ قَلْبَيْنِ قَلْبًا وَاحِدًا ... يَهْفُو إلى إِيمَاءَةِ الإِشْرَاقِ
وَتَأَوَّدَتْ أَحْلاَمُنَا البَيْضَاءُ فِي ... إِحْسَاسِنَا بِالحُبِّ فِي الآفَاقِ
فَأَنَا وَأَنْت وَكُلَّ شَيْءٍ بَيْنَنَا ... يُكْسَى بِلَوْنٍ مُزْهِرٍ بَرّاقِ
نَجْمَانِ أَوْ قَمَرَانِ أَوْ شَمْسَانِ ... بَلْ مَلَكَانِ يَمْتَثِلاَنِ لِلأَعْمَاقِ
مَالَتْ عَلَيَّ بِقَدِّهَا وَتَرَفَّقَتْ.. ... مَالَتْ عَلَيَّ لِوَحْشَةٍ وَعِنَاقِ
قَالَتْ : «أُحِبُّكَ إِنَّ حُبِّي قَاتِلِي» ... سَلِمَتْ عُيُونُكَ مِنْ ضَنَى الإِرْهَاقِ
وَأَخَالُ أَنَّك كُنْتَ فِي دُنْيا الهَوَى ... سِحْرِيَّةَ الكَلِمَاتِ وَالأَعْرَاقِ
فَكَأَنَّمَا قَد قُلْتِ مَا أَنَا قَائِلٌ ... فَشَفَيْتِنِي بِبَرَاعَةِ الإِشْفَاقِ
مَالِي تَرَكْتُ هَوَاكِ كَبْتًا فِي دَمِي ... فَسَرَى كَنَارٍ تَبْتَغِي إِحْرَاقِي ؟
فِي حِينِ كَانَ الحُبّ لَوْنًا ضَاحِكًا ... يَبْدُو شَهِيًّا فِي أَلَذّ مَذَاقِ
الطُهْرَ فِي قَلْبَيْنِ لاَ تَغْتَالُهُ ... أَبَدًا يَدٌ تَسْعَى بِهِ لَشِقَاقِ
الحُبّ يَبْقَى فِي الحَيَاة شِعَارَهَا ... فَاشْرَبْ كُؤُوسَهُ، إِنَّ قَلْبَكَ سَاقِ

الشاعر والمؤرخ التونسي الباجي المسعودي
(ت : 1880م)

تعريب : أحمد الطويلي

بقلم : ر. بلاشير

(ت 1880) (*)

أحست دول الشرق الاوسط العربية الاسلامية خلال مرحلة تطورها التاريخي المهىء لتحررها فى السنوات التالية لاستقلالها ، بالحاجة الى تذكر امجادها فى عالم الفكر ، وقد حفز هذا الشاغل الكتاب الى تأليف عدد من الاعمال الخاصة بمن يعود اليهم الفضل من المفكرين والادباء والشعراء فى ارساء المجد للعالم العربى الاسلامى ، ولم تتخلف تونس عن الاحساس يمثل هذا الامر فتعلقت همم عدد من المثقفين ببعض وجوه من القرن التاسع عشر

(*) دراسة اصدرها المستشرق الفرنسى ريجيس بلاشير فى مجموع « دراسات مغربية » تكريما للمؤرخ شارل أندرى جوليان ، من منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بباريس سنة 1964 .
وكان الاستاذ بلاشير أستاذا بكلية الآداب والعلوم الانسانية بباريس ومديرا لمعهد الدراسات الاسلامية ومدير الدراسات بالمعهد التطبيقى للدراسات العليا .

خاصة وحتى من هذا القرن مثل القاص على الدوعاجي مما اقتضى نشر اعمال مختلفة ودراسات شتى عن أدباء كانوا مغمورين من قبل . ويجب أن نـلاحظ بالخصوص صدور كتيب عن شاعر ومؤرخ تونسي هو البـاجي المسعودي (1) وهو يمثل نمطا معهودا من رجال العهـد المـاضي فيما كان يعـرف بالايـالة التـونسية .

فعلى بعد عشرين كلم تقريبا من تبرسق ، وغير بعيد عن بلـدة الكريب ، تقوم قبة على ضريح ولى من الاولياء ، وتنحدر من هذا الولى عائلة المسعـودى وهى عائلة برجوازية كانت تقيم بتبرسق فى القرن الثامن عشر ، وقدم احـد رجال هذه الاسرة الى تونس العاصمة فى عهد حمودة باى (حكم من 1782 الى 1814) ليزاول تعلمه بجامع الزيتونة ، فأقام بالعاصمة والتحق بخدمة الدولة موظفا بقلم الحسبان [بيت خزندار] ، وترقى فى عهد محمود باى (حكم من سنة 1814 الى 1824) الى خطة رئاسة الحسبان وتوفى سنة 1263هـ / 1847م ، مخلفا ابنا هو محمد الباجي . نحن لا نعرف الا اليسير من المعلومات عن طفولة هذا الابن ومن المحتمل ان يكون مولودا بتونس حوالى سنة 1225 هـ / 1810 م أو سنة 1226 هـ / 1811 م .

ويبدو أن والده قد اضطلع بتربيته الى ان اخذ الولد يتلقى بدوره الدروس بجامع الزيتونة حيث تتلمذ على الشيخين ابراهيم الرياحي ومحمد بن الخوجة . ولئن كانت ثقافته تقليدية الطابع فان مؤهلاته الادبية التى لا شـك فيها هى التى جعلت منه رجلا أكثر من فقيه أو نحوى .

وتسنى لنا أن نشاهد محمد الباجي يتميز بمواهبه الشعرية فى عهد جـد مبكر ، ولعل مواهبه هذه قد ساعدته فى اداء مهنته الادارية حينمـا انتـدب لخدمة حسين باى المتوفى سنة 1251 هـ / 1835 م ، فبدأ مثل والده يعمل فى « قلم الحسبان » ثم التحق برئاسة ديوان الانشاء حيث استطاع اظهار مواهبه الادبية بصورة فضلى ، وكان مرتبطا بصلات مع عدد ممـن بـرز من رجـال السياسة خلال فترة الاضطراب والفوضى التى انتهت بانتصاب الحمـاية على

---

(1) انظر كتاب محسن بن حميده ، « **الباجي المسعودى** » ، تونس ، الشركة القومية للنشر والتوزيع ، 1962 . سفر واحد ، صغير الحجم . 86 صفحة : ترجمة حيـاته ، ودراسة عنه : شاعرا وأديبـا ومؤرخـا مع منتخبات له شعرية ونثرية .

تونس ، وقد صاحب بصفة خاصة المؤرخ أحمد بن أبى الضياف الشهير بابن ضياف (2) والمصلح خير الدين .

وقد وافته المنية فى سنة 1297 هـ / 1880 م قبل ان يشهد التغيير الشامل الذى ستعيشه « الايالة التونسية » بعد عام [أي انتصاب الحماية الفرنسية] ، ودفن فى ضريح شيخه ابراهيم الرياحى غير بعيد عنه .

إن رسم حياة الباجى البيانى لا يعرض حقا كما يبدو لنا اى رغبة فى نفس هذا المؤرخ ولا اى احساس بالحيرة لديه اثناء حياته ، ولا يبرز هذا الرسم البيانى كذلك خاصة وبصورة محسوسة ردود الفعل عنده ازاء مشاهدة بلاده تترصدها الاطماع الدولية ويقضى عليها عجزها عن مدافعتها . وكذلك فان ما خلفه هذا الاديب من آثار لا يعكس بعمق حقيقى الفترة القلقة التى كتبت فيها . وقد بقيت لنا اشعار الباجى فى مجموعة وحيدة جمعت بفضل همة ابنه عبد العزيز .ويقع هذا الديوان ـ وهو ما زال مخطوطا ـ فى 115 صفحة ، وقد نسخ سنة 1319 هـ / 1902 م وهو على ملك الشيخ الطاهر بن عاشور . وينقسم تقسيما تعسفيا الى ثمانية أبواب حسب محتواه وهى كما يلى :

1 ـ قصائد فى مدح النبى والاولياء الصالحين .

2 ـ قصائد فى مدح الامراء .

3 ـ قطع فى مدح الوزراء والموظفين السامين .

4 ـ مقطوعات انشئت للمشايخ والاحباب .

5 ـ فى التقاريظ والتهانى الشعرية .

6 ـ لطائف : غزل وتواشيح .

7 ـ اشعار مناسبات .

8 ـ مراث .

كل هذه الاشعار تقليدية الشكل والاغراض حسبما يبدو من العينات التى نشرها محسن بن حميده ونجد من بينها خاصة قصيدة غنائية هنأ بها

(2) وجه اليه قصيدتين ادرجهما محسن بن حميده فى كتابه ص 45 ـ 46 .

الشاعر الباى محمد الصادق بمناسبة انشاء المدرسة الصادقية سنة 1295 هـ 1876 م ، وهذه القصيدة هى مثال للشعر الرسمى (3) ، اما الاشعار المدحية التى مدح بها الباجى رسول الله فهى تبدو مستحضرة من خلال النموذج الذى اطلعنا عليه (4) ، وترجعنا الاشعار التى نظمها الشاعر بمناسبة بناء محمد الصادق باى (5) للقصر السعيد الى نمط قديم جدا يمثله البحترى والمتنبى فى العهد الوسيط .

وقد أبان محمد الباجى عن كثير من الصناعة فى هذه الانواع وبرهن على براعته الفائقة ، بيد انه من الجلى الواضح ، لم يستطع ان ينظم شيئا طريفا فى هذه الاغراض . اما الاشعار التى دبجها الشاعر من وحى ذاته فهى تستحق مزيدا من الاهتمام . ونحن نتساءل بدون شك عن بعض الاشعار التلقائية الصادقة التى نجدها فى بعض ابياته الخمرية التى تذكرنا بأبى نواس (6) . ويبقى الدارس فى حيرة من أمر بعض القطع الغزلية التأثرية التى يمكن ان ترجع الى عهد مراهقة الشاعر (7) ، ولا يمكن لنا ان نعرف هل كانت هذه « تمارين مدرسية » أو هى صدى لاضطراب حقيقى عميق اذ ليس لنا معلومات من قبل الشاعر تفيدنا عن أمر هذه القطع .

ونجد ـ على العكس من ذلك ـ قصيدة غنائية يتجلى فيها كشوق المبعد عن تونس العاصمة والتعبير عن مشاعر عفوية تتصل بمظاهر بشرية خالدة (8) .

ان لدى محمد الباجى الشاعر والكاتب مهارة وقدرة فائقة على عرض زاده اللغوى الذى يظهر خاصة من خلال القطع الرسمية ، وقد جعله استعماله للسجع المتوازن منتميا الى كتاب الدواوين الذين تكن لهم البلاطات بالمشرق

---

(3) انظر فى كتاب محسن بن حميده ، ص : 44 . 15 بيتا من البحر الكامل والقافية رائية .

(4) نفس المرجع : ص : 37 .

(5) نفس المرجع ، ص 43 . تسعة أبيات من البحر الوافر والقافية دالية .

(6) نفس المرجع ، ص 55 : خمسة أبيات من البحر الكامل والقافية لامية .

(7) نفس المرجع ، ص 54 ، 12 بيتا من البحر الوافر والقافية رائية .

(8) نفس المرجع ، ص 40 ، 40 بيتا من البحر البسيط والقافية نونية . ذكر منها هنرى بيريس عشرة أبيات فى كتابه : « **الادب العربى من خلال النصوص** » ، ص 33 .

قيمة كبيرة (9) وهو يعرف كيف يتخلى عن هذا للاسلوب المزركش فى غير مقامات المناسبات ، وهو يدرى كيف يرجع فى آثاره التبريرية والتاريخية الى نثر غير منمنم يتوخى فيه اللفظة الشعبية (10) عند الحاجة . بحيث تبدو لنا آثاره التاريخية جديرة بالاهتمام أكثر مما قد يتصوره ظريف من ظرفاء عصره .

ولئن لم نستطع ان نتحدث بشيء عن تأليفه المتعلق بالطريقة الشاذلية (11) ، فانه يجدر بنا بدلا من ذلك ان نولى اهتماما خاصا لموجزه التاريخى عن تونس منذ الفتح العربى الى عهد محمد الصادق باى وهو كتاب مزدوج فى الواقع ويحتوى على قسمين :

1) « الخلاصة النقية فى أمراء افريقية » طبع بتونس سنة 1283 هـ / 1866 م، وينتهى لسنة 1837 .

(2) « عقد الفوائد فى تذييل الخلاصة وفوائد الرائد » طبع بتونس سنة 1323 هـ / 1905 م .

وقد عرفنا محمد الباجي نفسه بمقصده الذى قصد اليه فى تاريخه وذلك فى رسالة موجهة الى الوزير خير الدين مؤرخة فى سنة 1284 هـ / 1867 م بعث بها صحبة نسخة من تأليفه أبان فيها عما ضمه فيه من الفوائد ناعتا نفسه « بجامع » (12) وقال :

« انى لما فرغت من تبييضها وتهذيبها بلطائف الاخبار وتفضيضها ، تصفحتها فاستملحتها وأعدتها فاستجدتها والفيتها على صغرها فريدة لامعة ،

---

(9) نفس المرجع ، رسالة الى الشيخ محمود قابادو ، ص 67 . وانظر الملاحظات العامة عن كاتب هذه الرسالة فى نفس المرجع ، ص 27 .
(10) انظر ملاحظة محسن بن حميده ، ص 28 .
(11) ذكره بروكلمان فى كتابه « تاريخ الادب العربى » : الملحق ج : 2 ، ص 885 تحت عنوان : « الفتوح الربانية ، فى تفضيل الطريقة الشاذلية » ط. القاهرة سنة 1340 ، لم استطع الظفر بهذا الكتاب .
(12) انظر كتاب محسن بن حميده ، ص 69 .

ومفيدة جامعة ، وروضة يانعة ، احتوت على ما لا يسع نبيلا جهله من الاخبار ، وأخذت من كتب عديدة ما يلزم علمه من احوال أمراء هذه الديار (13) وأغنت بذلك عن كثير من كتب التاريخ الكبار » .

ويكمن هذا المزيج الغريب من الشعور بالرضى على النفس والرغبة فى الاجادة فى وجود اتجاه عام يدفع بعض الموظفين المعاصرين لخير الدين الى تقديم خدماتهم وابراز جوانبهم الابتداعية ، ومهما كان الامر فليس لنا أن نبالغ فى أهمية هذا الموجز التاريخى اذ يعتمد محمد الباجى فيما يخص تاريخ العهد الوسيط على مصادر غير مباشرة وينص على المصادر لكن بغير وضوح فنجد صعوبة فى معرفة من هو ولى الدين الذى يكثر من الاستشهاد به ويعنى به ابن خلدون الشهير .

وقد يتسنى لنا فحص مسألة هل ان اسهام مصنفنا فيما يخص العهد الحديث لا يقدم بعض العناصر الطريفة .

ان ما يراه المؤرخ وعالم الاجتماع من أهمية فى شخصية تضاهى شخصية محمد الباجى لا يكمن فيما خلقه هذا الشاعر المؤرخ من آثار وانما يجب البحث عنها خارج مؤلفاته ، ويمكن القول بدون تناقض : انها تكمن فيما يمثله هذا الشخص الاديب العالم من تسلسل «Sériel» . فمحمد الباجى يجسم أحسن تجسيم انموذج الاديب بالحاضرة التونسية كما استطعنا الالمام به الى أوائل هذا القرن . فهو متعلق بالتربة تعلقا متينا بسبب اصله الريفى والبرجوازى، وهو معزز فى مواقعه التقليدية بما ورثه عن الاجيال السابقة من أفكار ومظاهر سلوكية وايضا بتعلمه بجامع الزيتونة ، وقد عرف كيف ينمى فى نفسه كل ما من شأنه أن يزكى ثقافته العربية الاسلامية . وبما عرف مثل عدد من أدباء جيله كيف يمكن نفسه من التضلع من اللغة العربية وهى اللغة الوحيدة التى عرفها عموما ، وتكمن قيمة هذه الاداة العجيبة فى نظره فى امكانياتها الجمالية اذ حفزه ما اكتسبه من مهارة فى ممارسة هذه الاداة الى استعمالها فى شكيلها التعبيريين الجزلين : الشعر والنثر المسجع المتوازن ، وواضح ان فن الشعر يحتل فى نظره مكانته فى قمة الثقافة الادبية وكذلك النثر المسجع

---

(13) لطيف Condensé لاحظ هذا المعنى دوزى فى معجمه « **ملحق القواميس العربية** » ، ج : 2 ، ص 532 ب .

والمتوازن فهو يمثل فى نظره أيضا المثل الاعلى الاسلوبى الذى ينبغى للاديب ان يطمح اليه .

ان هذه التصورات قد تجاوزتها اليوم على الارجح بعض الفئات التونسية المستنيرة ، لكن لنتفق على انها قد صلحت على ان تصون صيانة كبرى شكلا من اشكال النشاط الفكرى بتونس خلال القرن التاسع عشر ، وقد سبق هذا الشكل التطورات اللاحقة .

ولا نتعسف إزاء الظروف التاريخية التى عاشها الباجي اذ تلتقى فى هـذا المجال مواقف سنة عريقة جدا ، والتاريخ بالنسبة الى تفكيـر مثـل تفكيـر الباجي هو تسلسل احداث لا ينبغى جهلها لكن ليس لاحد من الوقت ما يكفى ليطلع عليها بالتفصيل لذلك وجب على الاديب ان يفيد غيره فينشىء له خلاصة تستجيب لرغبته وامكانياته . وهذا التصور نفسه هو الذى ندين له بتآليف « الحوليات » مثل كتاب ابن الاثير بالمشرق من القرن الثامن .

وليست مزية الباجي هزيلة بالقـدر الذى يمكـن ان نتصـوره لان امثـال كتابه « الخلاصة » منعدمة الوجوه بالنسبة الى عهود تونس العـربية الاسلامية التى سبقت عهده . ولا يستطيع احد ان يناقش هـل ان هـذا المجهـود قد تجاوزته الايام ؟ لكن لا تكمن المشكلة هنا ويجب فى رأينا فى هذا المجال مثلما فى الشعر ان ننظر فى القيمة التمثيلية للاديب الذى اظهـر هـذه الهمـة فى تحرير تاريخه ، وان هذا التصور المتقادم للتاريخ ليكتسب كل مدلـوله فى نظر عالم الاجتماع لانه الوحيد الذى تلقاه جيل الباجي وبفضله تنشأ مقارنة مفيدة بين مفهومين متناقضين للصيرورة التاريخية .

تعريب : **احمد الطويل**

صمـود : اغنيـات عربيـة

أصدر الشاعر نور الدين صمود فى طبعة أنيقة مجموعته الشعرية الثانيـة التـى تحمل عنوانـا ذا حدين : **صمود : اغنيات عربية**

بلقيس في الوادي الكبير

شعر : الحبيب العوادي

إليك أيا وطنا ذائبا فى كيانى
سكبت حروفى
وأخرجتها من سدوفى
وفوق جبينى بكاء العذارى وطعن السيوف
وانت رهانى بلا مبدإ فى الوجود
ولا آخر فى الزمان
تطاولت فوق الرؤوس
رفضت مع الخمر كل الكؤوس
ركبت إليك
وزادى فقرى وحرف غريق وقلب يعانى .

* * *

أبلقيس (I) والعشق يدمى نشيجى ،
ففى القلب والروح جف خليجى ،
قصدت ذراك
وقد دنست فى الليالى عطور شذاك ،

* * *

ذكرت دروب المجانى
واصغيت للدهر يروى زمانى ،
هتفت لدى المجد عبر القصور ،
لعلك قرطبة اليوم سكرى ،
فقد أسدلت في النهار جميع الستائر ،
وبتنا نخاف الخفاء وطعن الخناجر
وتخشى بروز الصفاء
بمستنقع عفنته الضمائر ،
وبلقيس ، فى النهر تسبى العيون ،
وفى الجفن منها تسيل الدموع بأرض الكبائر .

(I) بلقيس هى ملكة سبأ ونرمز بها إلى المجد العربى .

ندوة القراء

رسالة مفتوحة بشأن مجلة «الفكر»

أما بعد فاني أقدم اليكم أربع (!) اقتراحات تتعلق بتحسين مواد مجلة « الفكر » وزيادة رواجها آملا (!) أن تعملوا بها وهي :

أولا : فتح أبواب المجلة لكل مثقف كي لا تكون غالبا وقفا على بعض الكتاب المشهورين والمرموقين غيرهم .

ثانيا : **الاكثار** من نشر البحوث والدراسات والمقالات في **كل أبواب** الثقافة والمعرفة والفكر وشعبها .

ثالثا : تقليل نصيب الشعر والقصة بعض التقليل في **كل اعداد المجلة** .

رابعا : منح كل كاتب في المجلة اشتراكا مجانيا جزاء له على ذلك

سيدي ان هذه المقترحات كفيلة في رأيي ورأى كثير من المثقفين الذين أعرفهم بتحسين مواد المجلة وتنويعها ، وبالرفع من عدد المقبلين عليها قراءة وكتابة . وإني قد لاحظت ان المجلة تفضل غالبا نشر مقالات بعض الكتاب المشهورين ولا تنشر لغيرهم الا قليلا كما رأينا المجلة دائما في كل عدد تقتصر على القصة والشعر اللذين يحتلان ثلاثة ارباعها بحيث يرى عدد وافر من أهل الثقافة لو يبدل اسمها باسم « مجلة الشعر والقصة » لكان هذا الاسم أجدر وأصدق عليها . وكان لهذا عدد كبير رأيناهم لا يهتمون بها لأنهم يعدونها مجلة للقصة والشعر وما يتعلق بهما من دراسات وبحوث ومقالات .

ان في منح المجلة اشتراكا سنويا لكتابها او في ارسالها الى كل واحد منهم عددا به موضوع نشر له في المجلة اسداء بعض الواجب اليهم وارضاء جزئيا لهم لأن أحدهم لا شك يقضي أوقاتا كبيرة غالية للبحث والدراسة وتسويدها ثم نسخها وارسالها للمجلة في رسالة غير عادية ينفق عليها نحو 150 م أو 200 مليما في الغالب وهو مع ذلك كله لا يتمتع بقراءة مقاله أو بحثه أو

دراسته وامتلاكه مجانا ، وهذا من المجلة عقوق كبير لكتابها وأسـرة النشـر فيها وهو ما جعل بعض من كان يكتب فيها منذ سنين من معارفي يعرض عن الكتابة فيها حتى اليوم خاصة انهم يعلمون ان المجلات الاخرى تمنح اشتراكات مجانية لكل من يكتب فيها وبعضها الكثير يمنح لكتابها مقدارا من المال العين على كل مقال ينشر فيها . اما مجلة « الفكر » فيرمقونها لا ترى لهم فضلا عليها ولا على الثقافة ولا تعير مجهوداتهم ومعاناتهم اية قيمة .

انى أهدف من وراء مقترحاتى هذه نشر الثقافة أكثـر بتنويـع المواضيـع والكتاب والاراء والاكثار من المستفيدين من الثقافة والمعرفة والفكر من القراء والكتاب معا عوضا عن قصرها على المهتمين بالشعر والقصـة فقط وذلك لان الثقافة ليست أدبا وحده وانما هى شمول لكل المعارف والعلوم .

ولكم فى البدء والختام أصدق مشاعرى الودية واكبارى والسلام .

مفيده بن حسين

(منزل تميم)

نشرنا هذه الرسالة (على علاتها) تواصلا للحوار الصريح بين مجلة «الفكر» وقرائها . إلا أن البعض مما جاء فيها يحتاج للتصحيح وابداء الراى فيه .

ذلـك أن مـا قـالتــه الأخـت مفيـدة فى الاقتـراح الأول غيـر صحيح الى درجـة أن البعض ينحـى علينـا باللائمة لكوننـا نفسح المجـال كثيـرا للناشئة الأدبية . اما الاقتراح الثانى والثالث فنكتفى بتقديم عـدد صفحـات العدد الاخير مثلا من المجلة فنلاحظ : 66 صفحـة للدراسـات المتنـوعة ، 23 صفحة للشعر ، 24 صفحة للقصة ، 14 صفحة أصداء ثقافية وتحاور بين المجلة ومراسليهـا . اما فيمـا يخص اقتراحها الرابع فنحن نرسل المجلة لكل من يحرر فيها مجانا ومن لم يتصل بها فلسبب وحيد ، كوننا نجهل عنوانه .

أمـا من ناحيـة تقليل نصيـب الشعر والقصة فهذا لا يمكـن لان الأدب التونسى ما عرف فى المشـرق والمغـرب العـربيين وعند المستشرقين إلا عن طريق مجلة « الفكر » ، وهذا جزء من رسالة هذه المجلة لا يمكن لها أن تتنكر له بحال من الأحوال .

(الفكـر)

الصادق الأروع

شعر: العيد الشاطى

[مهداة الى الاستاذ : ش. ق.]

(1)

جوانح عمرى لكم مرتع وصدق العواطف لا ينفع
وراحت بأيامى الذكريات فطاف عليها الهوى اجمع

ودون حديثك لا اسمع

عشايا تذكرتها فى المغيب واصداء ذكرى لها مفزع
وعانيت فى الغانيات جراحي ومسرى ليالى هل يرجع

أمن يطلب العشق لا يركع

همسنا بأوجاعنا للزمان فراح لأحزاننا يدمع
وآثرت كتم حديث الغرام فللناس فى أمرنا مخدع

وكنت على ظنى أخدع

عبرنا بأحلامنا الطيبات ولحن معازفنا يصدع
فوشوش منا عبير النسيم وأناته فى الورى تسمع

وقلبى فى الوصل لا يطمع

(2)

أبا « المهدى » كنت الى معينا متى عصف الدهر لا أروع
وكم كان باسمك تبنى المعالى وأقزام قوم بكم ترفع
طموحى على الدهر لا يهجع
تقاس المناصب بالرمزيات وتهدى الوظائف من تجمع
عليه ترانيم احدى الغوانى ووالده فى الورى طيع ..
وتاريخ مجدهم أرفع
ونحسب فى قائمات الضحايا ومجد البداوة لا يشفع ..
وتنفق أيامنا للحزانى ومربعنا صامت بلقع
مشاربنا للعلى تنزع
وقفنا على شرفات الحياة لنلقى من الكون ما يخدع
فزفت اليك تحايا الرجال ودونك أرواحهم تدفع
وأنت هو الصادق الأروع

أصداء الفكر

● **منارة من تونس :**

تحت هذا العنوان نشرت جريدة « الراية » القطرية فى عددها الصادر يوم 1980/11/19 بقلم الاستاذ رجاء النقاش ما يلى :

تلقيت دعوة كريمة لحضور الاحتفال بمرور خمسة وعشرين سنة على صدور مجلة « الفكر » التونسية ولم أستطع السفر الى تونس الجميلة للمشاركة فى هذ الاحتفال ، بسبب ظروف العمل الصحفى « زرعتنى » فى أرض قطر ، كنخلة ، لا تستطيع الحركة هنا او هناك . ولقد كنت أتمنى ان اشارك فى هذا الاحتفال لما تحمله مجلة الفكر من مكانة فى نفسى ونفوس الكثيرين من القراء والمحبين للفكر النقى الصافى فى الوطن العربى .

والذى أنشأ الفكر هو الاديب المفكر محمد مزالى رئيس وزراء تونس الآن ، اما الرجل الثانى الذى ساهم فى تحمل المسؤولية فى هذه المجلة فهو البشير بن سلامة ، الذى يترأس تحرير المجلة الآن بعد ان تولى مزالى رئاسة الوزراء التونسية .

ومجلة الفكر هى احدى المجلات العربية القليلة التى استطاعت ان تواصل دورها ورسالتها خلال ربع قرن متصل من الزمان ، دون ان تضعف او تضطرب او تتخلى عن مبادئها الاصلية الراقية ، وقد تابعت هذه المجلة فى معظم اعدادها ، فأحسست ان الذين يقفون وراءها ، انما يحملون فى عقولهم وقلوبهم انبل المبادىء وارقى الافكار ، ويكفى ان نلقى نظرة على اى عدد من اعداد المجلة حتى نحس بما فيها من صدق واصالة واحساس عميق برسالتها الكبيرة ، فمجلة الفكر من ناحية الشكل بالغة التواضع ، فقد تخلصت من كل الزخارف والورق المصقول والالوان والاشكال الصارخة التى اصبحت تتميز بها معظم المجلات الثقافية العربية الآن ، بحيث اصبحت قراءة بعض هذه المجلات الثقافية العربية اليوم ، اشبه بدخول ناد ليلى ملىء بالاضواء والزخارف والاثارة المفتعلة التى لا معنى لها ولا قيمة الا عند اصحاب العقول الصغيرة والنفوس الضحلة التافهة . لقد تخلصت مجلة الفكر من هذا كله ، لانها اصلا « مجاهدة » وليست من « العاطلين بالوراثة » .

لقد قامت مجلة الفكر على اساس مختلف تماما ، واعتمدت على امكانيات متواضعة بسيطة ، ومع ذلك فقد قدمت للثقافة العربية خدمات واسعة عميقة فقد تصدت هذه المجلة لاعداء الثقافة العربية فى المغرب كله ، وهم كثيرون من ابناء العرب الذين ذابوا فى الثقافة الفرنسية ، وابتعدوا عن جذورهم العربية الاصيلة ، ولم يستطع كيانهم الفكرى الضعيف ان يخلق التوازن السليم بين الثقافة العربية والثقافة الغربية ؛ كما فعل الكبار من مفكرى الجيل الماضى مثل طه حسين والعقاد والزيات والمازنى وزكى مبارك ومحمد مندور وغيرهم ، وقد تحول هؤلاء الذين انسحقوا امام الثقافة الغربية بالتدريج الى « اعداء » للثقافة العربية ، ويشنون عليها الحرب انحيازا كاملا ، ان دل على شيء فانما يدل على ضعف شخصياتهم وضآلة شأنهم وقلة جدواهم لاهلهم وبلادهم ، مهما حفظوا من اصلاحات اجنبية ، ومهما نطقوا باسماء الكتب والكتاب فى باريس أو غيرها من عواصم الغرب ، لقد سقط هؤلاء امام صدمة الثقافة الغربية ، « فانعوج » لسانهم وعقلهم وانطمست قلوبهم فهم لا يبصرون . وفى هذه المعركة ظهرت مجلة «الفكر» لتكون منارة للثقافة العربية العصرية الجديدة التى يتوازن فيها الماضى مع الحاضر ، وتراثنا القديم مع ما يمكن ان نأخذه من ثقافة الغرب دون ان نفقد ما لنا من جذور واصول .

ولقد كتب محمد مزالى منشىء مجلة الفكر عدة مرات عن « حوار الحضارات » واثبت بثقافته الواسعة وحججه القوية ان الحضارة الغربية الحديثة انما هى ثمرة لجهود حضارية كبرى ، على رأسها الجهد الحضارى العربى ، الذى لولاه لتأخرت حضارة الغرب وتعثرت وعجزت عن ان تحقق هذه القفزة التى حققتها فى العصر الحديث ، والتى يرى بعض الذين لا يبصرون انها قفزة حضارية ليس لها مقدمات وهذا خطأ وضلال وبهتان .

على ان مجلة الفكر اذا كانت قد خاضت فى هدوء وصلابة واصرار معركتها الكبيرة ضد « المتغربين أو المستغربين » من أنصار الثقافة الغربية أو من ضحاياها – اذا صح التعبير – ... هؤلاء الذين مثلوا فى بلادنا « جيشا سريا » للمصالح الغربية كان أقوى من الجيوش السرية العلنية ... اذا كانت مجلة « الفكر » قد خاضت هذه المعركة ضد هؤلاء ، بغير صخب ولا عنف ، فقد خاضت المجلة معركة اخرى كانت من اشرف المعارك وانبلها على مسرح الثقافة العربية المعاصرة ، الا وهى معركة « التوحيد الثقافى بين المغرب العربى والمشرق العربى » ، فقد اراد الذين يخططون ضد العرب وضد مصالحهم . ان تكون هناك فجوة واسعة وكبيرة بين المغرب العربى والمشرق

العربى ، وان يكون للمغرب ثقافته ، ولنا نحن اهل المشرق ثقافة اخرى لا علاقة لها بعرب تونس ومراكش والجزائر وليبيا ، وقد مرت على البلاد العربية ظروف صعبة عسيرة من الخلافات والانقسامات كانت كفيلة كلها بأن تشجع مثل هذا الاتجاه الثقافى الخاطىء بل والخطير ، ولكن مجلة « الفكر » تصدت لهذا الاتجاه على طريقتها الهادئة البعيدة عن العنف الضجيج ، ولم تتأثر مجلة الفكر ابدا بهذا الاتجاه فى أحلك ايام الخلافات السياسية بين العرب ، واعتبرت ان الثقافة العربية هى ثقافة واحدة وان تنوعت فى مصادرها ومواقعها المختلفة ، ولذلك كانت « الفكر » تكتب عن طه حسين وتدرس أدبه وآراءه بنفس الاهتمام الذى كانت تكتب به عن « أبى القاسم الشابى » وتدرس أشعاره وأفكاره ، كما كانت تكتب عن « بن باديس » العالم والمجدد الجزائرى الكبير وعن « محمد عبده » العالم والمجدد المصرى الكبير ، وكانت تكتب عن « قاسم أمين » داعية تحرير المرأة فى مصر بنفس الاهتمام الذى تكتب به عن « الطاهر الحداد » داعية تحرير المراة فى تونس ، وكانت تكتب عن الازهر ، كما تكتب عن جامع الزيتونة . وهكذا جعلت مجلة الفكر هدفها ورسالتها خدمة « الثقافة العربية الواحدة » بغير تعصب اقليمى ، وبغير اعترافات بالخلافات السياسية وما ترتب عنها من نكبات فى العلاقات العربية المختلفة .

ويكفى لمجلة الفكر انها خاضت بكل طهر وصفاء وتواضع ونقاء هاتين المعركتين : معركتها ضد أعداء الثقافة العربية ومعركتها ضد الذين ارادوا تمزيق اواصر العقل العربى المعاصر وتقسيمه الى عقل مغربى وعقل مشرقى .

فالتحية الخالصة ، والتقدير الاعمق والاكبر لمجلة الفكر فى عامها الخامس والعشرين ، وتحية اخرى من القلب وتقدير لا يزيد عليه تقدير للكاتبين الكبيرين محمد مزالى رئيس وزراء تونس ومؤسس مجلة الفكر ، والبشير بن سلامة رئيس تحريرها الحالى ، واحد اثنين قامت على اكتافهما هذه المجلة او هذه النهضة والمنارة ، تحية لفكرهما الناضج ورؤيتهما الحضارية والثقافية والعالية ، وتحية لكفاحهما الفكرى الهادىء الصبور .

● **مجلة « دعوة الحق » والعيد الفضى بمجلة « الفكر » :**

أرسل الينا الاستاذ عبد القادر الادريسي رئيس تحرير مجلة « دعوة الحق » رسالة بمناسبة العيد الفضى « للفكر » جاء فيها :

... يسعدنى أن أهنئكم وكل المثقفين فى تونس الشقيقة بالذكرى

الفضية لمجلتنا (الفكر) التى تعتبر بحق نافذة على الثقافة والادب والفكر فى بلدكم العزيز .

وان مجلة (دعـوة الحـق) التى تعد أقدم مجلة شهرية فكرية تواظب على الصدور فى المغرب العربى كله من يوليوز سنة 1957 لتعتز بشقيقتها وزميلتها (الفكر) التى قطعت هذه المرحلة الهامة من تاريخ مغربنا الكبير ، واذا كانت (دعوة الحق) تعنى بالدراسات الاسلامية فى المقام الاول فان عنايتها بشؤون الفكر والثقافة عموما تجعلها تقدر العمل الكبيــر الذى اضطلعت بمسؤوليته رصيفتها التونسية الرائدة .

أجدد لكم التهنئة مع خالص الود وأطيب التمنيات (لفكرنا) بالعمر المديد والتوفيق فى أداء رسالتها الثقافية السامية تحت رعـاية مؤسسهـا الـرائد الكبير السيد الوزير الاول المحترم الاديب محمد مزالى الذى يعـرفه المغـرب شهما وفارسا لا يشق له غبار . وفقكم الله .

ونحن نشكر الصديق على عواطفه النبيلة ونتمنى لمجلـة « دعـوة الحـق » دوام الصدور ومزيد الاشعاع .

● مجلة الحياة الثقافية :

صدر العدد الجديد من مجلة « الحياة الثقافية » التى تصدرها وزارة الشؤون الثقافية مرة كل شهرين . وقد جاء فى العدد 11 من الدراسـات ما عنـوانه : « **لمن يكتب الشعـراء الشبان ؟** » تحدث فيهـا الكاتب يوسف الحناشى عن مجموعة : « **أمتـاز عليـك بأحـزانى** » ومجموعة : « **صوتى مقلوع الأظافر** » ومجموعة : « **الجـرح المسافـر** » كمجموعات شعرية أقحم بينها مجموعتين من **القصائد المنثورة** التى لا تمت بصلة الى مقوماتالشعر العربى الا من حيث كونها موزعة سطورها فوق الورق على شكل « شعر حر » .

كما نقرأ فى مجال القصة ثلاثة عناوين هى : « البحـث عن لحظـة فـرح » و « شيـخ ونخلتـان » و « القـرص » أما فى مجال الشعر فنقـرأ قصيدتين بعنوان : « وشم الرماد » لآدم فتحى وقصيدة أخرى للشاعر سليمان العيسى بعنوان : « أضم ثراك .. يا خضراء » .

هذا الى جانب الأركان القـارة « نقـد الكتـب » و « النشـاط الثقـافى »

● الرفض ومعانيه فى شعر المتنبـــى :

أهدانـا الصديق يوسف الحناشـى نسخة من عمله الجامعى الذى نال به « ديبلـوم البحوث المعمقة » باشـراف الاستاذ المنجـى الشملـى وعنوانه « الرفض ومعانيه فى شعر المتنبى » وهو عبارة عن اطروحة المرحلة الثالثة نشكره ونرجو له مزيد التوفيق فى بحوثه المتعمقـة .

● **أصداء الوطن القبلي :**

مجلة إعـلامية جامعة وصلنا منها العدد 7 ـ اكتوبر 1980 . ويحتوى العدد على أركان عديدة منها : الافتتـاحية . وأصـداء المجلـة . وقف لحظة . وملف العدد وهو خاص بالفلاحة فى الوطن القبلى . وتـربية . واجتماعيات . والملف الاقتصادى . وفى ركن : ثقافة نقرأ «الأيام الثقافية للأديب : محمد البشروش» بقلم لطفى عبد الواحد . وتاريخ وحضارة بقلم محمد الصادق عبد اللطيـف . كما نقرأ تحت عنوان : « هنيئا لأبناء الوطن القبلى » تهنئة صادقة توجهت بها أسرة التحرير باسم ابناء الوطن القبلى للأخ الصديـق عبـد الحـق الأسـود بمناسبة تعيينه من جديد كاتبا عاما للجنة التنسيق الحزبى بنابل من طـرف الديوان السياسـى وانها لثقة غالية هو جدير بهـا نهنئه بدورنا ونرجو له التوفيق من الله فى عودته ، والعود أحمد .

● **الأديب رشيد الذوادى صاحب كتاب « هذه بنزرت » :**

« هذه بنزرت » آخر ما أصدر الأديب رشيد الذوادى بعد أن ظهرت له عدة مؤلفات منها : رواد الاصلاح ، عظماء بلادى ، أدباء تونسيون ، جماعة تحـت السور ، أعلام من بنزرت ، وقد عين أخيرا كاتبا عاما للجنة التنسيق الحزبى ببنزرت وانها لثقة غالية يخصه بها الديوان السياسى وانه لجدير بها . نهنئه ونرجو أن يوفقه الله فى هذه المهمة لما فيه خير الوطن المفدى .

● **مجلة « فاروس » للآداب والفنون :**

تلقينا من الصديق أحمد فضل شبلول نسخـة من العـدد 2 س 1 لمجلـة (فاروس) التى تصدرها على نفقتها جمـاعة فـاروس للآداب والفنون بمدينة « الاسكندرية » وقد جاء فى الافتتاحية بقلم : حسام الدين شوقى التى تحمل عنوان : « الكتاب أم الرغيف ؟ » ما يلى : وبالرجوع الى موضوع الكتاب مـرة أخرى ـ والذى فى رأينا أنه جهاز متكامل للثقافة ـ سنجد أنه فى هذه الأيام لم يعد من الوسائل التى يقبل عليها الشباب لعدة أسباب من أهمها :

1) ارتفاع سعره المفاجىء بما لا يتناسب مع الدخل .

2) تحول الكتاب من وسيلة ثقافية الى وسيلة تجارية .

3) التركيز على الاسماء الكبيرة حتى ولو كتبوا : « ريان يا فجل ...! »

نشكر الصديق أحمد فضل شبلول على النسخة التى وصلتنا هديـة منه من مجلة « فاروس » ونرجو لجماعـة فاروس التوفيق فى جهودهم الثقافيـة والاصرار على الصمود والتـواصل فى هـذه المعـركة الخـالدة بين القدمـاء والمحدثين التى نريدها معركـة تقـدم للفكـر والادب ومـلاءمة بينـه وبين

واقــع المجتمع المتحرك لا مجرد معركــة بين أسماء معروفة وأخرى مجهولة تريد أن تعرف .

● **منهج ابن البيطار فى معالجة المصطلح النباتى والصيدلى :**

هذا عنوان « فصلة » من حوليات الجامعة التونسية مــن تأليــف الاستــاذ ابراهيم بن مــراد الذى أهدانا نسخــة من تأليفــه هذا نتمنى لــه المزيد من الانتــــاج .

● **العدد : 224 من مجلة « المعرفة » السورية :**

وصلتنا مجلة « المعرفة » التى تصدرها شهريا وزارة الثقافة والارشاد القومى فى الجمهورية العربية السورية ـ فى عدد 224 لسنتها التاسعة عشرة .

وقد جاءت متنوعة المواضيع تضم عدة عناوين منها : « تشرين .. قيامته لم تكتمل » بقلم رئيس التحرير الأستاذ محمد عمران .

نتمنى للزميلة « المعرفة » تواصل العطاء خدمة للثقافة العربية .

● **كتاب يحيى بن سلام ورسالة دكتوراه :**

أهدتنــا الاستــاذة هنــد شلبــى نسخــة من كتــاب : « التصــاريــف » ليحيى بن سلام الذى قدمت له وحققته . ثم نشرته الدار التونسية للنشر فى ربيع الأول 1400 هـ الموافق فيفرى 1980 .

والكتاب هو تفسير القرآن مما اشتبهت اسماؤه وتصرفت معانيه ويضم 410 ص . من القطع الكبير .

كما وصلنا مخطوط قيم ذى جزأين يحمل عنوان « **القراءات بافريقيــة مــن الفتح الى منتصف القرن الخامس الهجرى** » وهو عبارة عن رسالة لنيل شهادة دكتوراه الحلقة الثالثة اعداد الاستاذة هند شلبى واشراف الدكتــور : عــلى الشابى لسنة 79 ـ 1980 ـ الجامعة التونسية ـ الكلية الزيتونيــة للشريعــة وأصول الدين .

نشكر المؤلفة هند شلبى على هديتها ونرجو لها تواصل التوفيق .

● **دائــرة الكســوف :**

مجموعة قصصية من نشر اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق 1980 ـ وتأليــف الأديب مصطفى يعلى ، تضم 10 قصص منها : الطفل الشرس ، فيضان النهــر الغاضب ، هرنان الحكيم ، مع اهداء بقلم المؤلف جاء فيه : « إلى كل الأصلاء من أبناء أمتنا العريقة » .. وقد صمم الغلاف الرائق الرسام نبيل الكراد .

نشكر المؤلف الأخ مصطفى على هديته ونرجو له مزيد التقدم .

● **كتاب التراث :**

من منشورات مجلة « الطليعة الادبية » الصادرة عن وزارة الثقافة والفنون

بالعراق . دار الجاحظ . بغداد . وصلتنا نسخة من « كتاب التراث » الذى أعده الدكتوران : محمود عبد الله الجادر وبهجت عبد الغفور . وقد اشتمل هذا الكتاب على أقلام محررين عدة فى مواضيع شتى منهـا : تائية الشنفـرى بقلم مرشد الزبيدى . خواطر فى الحياة والموت « مختارات من معلقة طرفة بن العبد » بقلم د. ياسين الايوبى . بائية ذى الرمة بقلم طراد الكبسى . قراءة فى نونية المعرى بقلم غالب المطلبى وغير ذلك من المواضيع .

نبارك هذه الظاهرة التى بدأت تمارسها بعض المجلات فى جمع المواضيع الهامة ونشرها فى كتب خاصة خدمة منها للثقافة العربية ومساهمة فى نشر المخطوطات وجمع انتاج الكتاب .

● **بداية القرن الخامس عشر الهجرى فى موريشس :**

تحتفل الجمعية الجنـوبية للنـوادى الاسـلامية فى جزر موريشس بحلول القرن الخامس‌عشر الهجرى من خلال‌نشاطات متعددة منها : مهرجانات خطابية حول‌الاسلام ، ومسابقة بين المقالات‌حول الهجرة ،ونشر كراسات‌ومقالات‌نقدية تغطى مواضيع اسلامية ، واقامة معرض للكتب التى نشرت حول الاسلام فى البلاد الاسلامية الاخرى ، واقامة يوم خاص للاحتفاء بالرسول الأعظم محمـد صلى الله عليه وسلم وذلك ، فضلا عن الخطب الـدينية فى جميـع المسـاجد بجزر موريشس .

● **تحية جوهر الاسلام الى « الفكر » :**

تحت هذا العنوان نشرت مجلة « جوهر الاسلام » ـ مشكورة ـ فى عددها الصادر فى ديسمبر 1980 ما يلى :

تحية حارة الى زميلتنا مجلة « الفكر » على انقضاء ربع قرن على صدور أول عدد منها ، قضته فى خدمة الفكر والثقافة العربية بالشمال الافريقى .

إن استمرار « الفكر » ربع قرن شاهد حق على قدرة الفكـر الحر العصامى على الثبات . فتحية لمؤسس « الفكـر » ومديرهـا الذى آمـن بالاصالة الحق والتفتح الصحيح ، والى مزيد من التقدم والانتشار والاستمـرار يـا مجلـة « الفكر » وتحية حارة مجددة من زميلتك « جـوهـر الاسـلام » وعهـدا على الاستمرار فى هذا النهج الواضح والطريق المستقيم .

● **حول مهرجان قرطاج :**

نشرت جريدة « السفيـر » فى عددها الصادر بتاريـخ : 1980/8/31 عن مهرجان قرطاج بقلم أحمد دحبور الذى تكرم عليه المهرجان فدعـاه فحضر ! ونحن نقتطف من هذه الكلمة ما يلى :

تونس ليست خضراء فقط انها بيضـاء أيضا ، هذا ما قالته لـى جدرانها

وشوارعها قبل بضع سنوات ، لكنني هذه المرة لم ار ، **لحظة وصولي ،** اخضر ولا ابيض ، فقد أخذوني ــ بسبب تأخري في الوصول ــ من المطار الى مدرج قرطاج ، لاشهد **المجزرة الشعرية** التي بدأت في التاسعة والنصف ليلا ولم تنته حتى قرابة الثانية صباحا ، حيث اشترك واحد وعشرون بين **شاعر ومشروع شاعر ومدعي شعـــر ....**

وفي تلك الحفلة الحفلاء ، كان علي ــ شأني شأن ألفي شخص من الجمهور ــ **ان أشهد الكثير من العجائب والقليل من الشعر** ، ولقد اسهمت في تعقيد الامر نسمة البرد التي جعلت تلح بعد منتصف الليل ، والدوار الذي كان ما يزال يعصف برأسي خلال رحلة الطائرة من دمشق الى تونس ، اضافة الى ان دوري في الالقاء كان في الواحدة بعد منتصف الليل ، ومع هذه المكابدة كنت ــ كبقية الجمهور أيضا ــ أتلقى صفعات الاضاءة القوية المبهرة ، بحيث يكاد واحدنا لا يرى الآخر ، وقد كانت لدى مريد البرغوثي شجاعة الاعتراف بأنه لا يرى شيئا ، وذلك حين وقف ليلقي قصائده الاربع القصيرة ، لكن الغيلان الضوئية لم تكترث بشكوى الشاعر ، فاضطر ان يعطي الجمهور نصف وجهه فقط ، لكن هذا لم يمنع من وصول قصائده التي أختارها من مجموعته الجديدة « قصائد الرصيف » والتي تتميز بالقدرة على استقطاب المرئيات البسيطة وضبطها في حالة شعرية قائمة على المفارقة والدهشة اللتين تأخذان مداهما في القفلة الشعرية المتقنة ، وكان جمهور قرطاج **كريما مع الشعر ، وجلادا مع قتلة الشعـــر .**

القى رجل طيب القلب ، وطني بالتأكيد ، قصيدة ــ او هكذا قال ــ عن فلسطين ، وصف بها الانهار والاشجار والزرع والضرع والعصافير والشلالات وتحدث عن عواطف الامومة والابوة وكل شيء ، وكان الجمهور يصفر ويصفق ــ لكنه تصفيق من نوع آخر ــ والرجل الطيب يحيي الجمهور حتى أتى على كلمة لها دلالة خاصة باللهجة التونسية فانفجرت القاعة بالتصفيق الضاحك الصافر ، وظن صاحبنا انه أمسك بلحظته المنتظرة ، فراح يعيد الكلمة ، والجمهور يعيد الصفر حتى أوشك بعض القائمين على المهرجان ان يتدخلوا لايقاف المشهد المسلي .

وألقت الدكتورة طلعت الرفاعي ــ وهي السيدة الوحيدة في الامسية قصيدتين قالت انهما قصيدة واحدة ــ وعن فلسطين طبعا ــ لكن هذا لا يهم ــ لان المهم الوحيد كان يتمثل في العلاقة ــ داخل القصيدة او القصيدتين ــ بين الوطن الحبيب وبين الشاعرة العامرة بالمشاعر الجياشة تجاه الوطن والمواطنين .

على ان الليلة بشكل عام ، كانت ليلة تونسية ، فباستثناء الشعراء الذين ذكرت ــ مضافا اليهم الشاعر سليمان العيسى والعبد الفقير ــ كان شعراء الامسية جميعا من تونس ، وكانت قصيدة الاستاذ العيسى عن تونس الخضراء لكن أفكارها لم تقف عند هذه الحدود ، بل ذهبت ــ كما في شعره كله ــ الى حتمية الوحدة العربية والنضال لتحقيق الاماني القومية كافة ، ولقد كان امرا ذا دلالة ان يقدمه عريف الحفل بوصفه شاعر القومية العربية .

وقد يتعين على أن اقول ان قصيدتي عن الشهيد عز الدين القلق التي القيتها في هذه الامسية ، لم تصل كما كنت أتوقع .

اما الشعراء التوانسة فكانوا ــ في اعتقادي ــ نماذج عن واقع الشعر في المغرب العربي كله ، لقد تفاوتوا بين سلفي متحجر متفجر ، واذا كنا متفقين على الرأى في السلفية فان الاشكال واقع حتما على ما اصطلح عليه بالتجديد حيث تختلط الامور حتى الارتياب في الشعر نفسه ...]

وبدون تعليـــق ...

● **سيد الفكر يا رسول البيان :**

القصيد الذى ألقاه الشاعر أحمد المختار الهادى فى الزيارة التى قام بها السيد محمد مزالى الوزير الاول لولاية قفصة أمام سيادته بالمتلوى .

سيد الفكر يا رسول البيان — أنت أنطقت بالثناء لسانى
أنت شرفتنا فأهلا وسهلا — بمحب الانسان للانسان
زرتنا بالمنى فبيتك هذا — مهبط العزم والقوى والأمانى
قفصة هذه طموح وبذل — وكفاح من غابر الأزمان
صدت الكيد من عداها وكانوا — طغمة جربت هوى الشيطان
رجمتهم فما استطاعوا هروبا — حصلوا فى الفخاخ كالفئران
سوف يبقى العزيز نسرا عظيما — وسيبقى سواه كالغربان
لن أرى وجهه فوجهه أمسى — غارقا فى الدماء والقطران
باع أرض الأجداد بالفلس حتى — فرش الفلس فى خدور الغوانى
أبطرته الأحلام والحلم حمى — فى شعوب تحيا على بركان
نحن شعب يا سيد الفكر أحرى — أن نخلي حسابهم للزمان
نحن شعب يبنى الحياة انطلاقا — وانتشاء لروعة البنيان
أنت إذ زرت قفصة البذل يوما — ومزجت الأصداء بالألوان
قد وجدت القلوب تخفق حبا — وصفاء فى روعة التحنان
يتغنى عمالها السمر دوما — فى الدواميس بالضلوع المتان

وبفسفاطهم وكل قواهم   يا عطاء الفسفاط فى الافران
ولياليهم التى تتلظى   بين أنفاقهم على النيران
ملحمات تصوغها عزمات   نبعت كلها من الشريان
حين يسقى الدم التراب تراه   زهرة فتحت بكل مكان
عامل هاهنا أتانا جديد   ربما اليوم مات فى الامتحان
سوف يأتى أخوه بعد سنين   كادحا فى يديه مصباحان
فبيمناه ثورة وتحد   وبيسراه صولة العنفوان
قال : أرضى ومنجمى يا حياتى   يا ترابى أفديك كل كيانى
من أبى أو أخى وخالى وعمى   شهداء فى ساحة الميدان
لست أرثيهم فهم جسر بذل   غالب العجز والونى بالتفانى
إن فسفاطنا لخير عميم   به فقنا الانتاج فى البلدان
جددوا واشحذوا العزيمة دوما   فلانتاج منجم منجمان
سيد الفكر ذى مقولة شعرى   عجزت فى المقال والتبيان
عشت للفكر كل شهر وشهر   يغفر الله ، إنها قرآنى
ست عشر من السنين تولت   وأنا ناشر بها الحانى
أنت الهمتنى بها الشعر يوما   فغدا الشعر ملهما وجدانى
أشرق الشعر يوم أشرقت فينا   فبعثنا الى الخليل التهانى
واكب الحرف كل رفش وزند   فاذا الحرف والقوى توأمان
نفتح الأصل والتأصل فتح   كل خيط يجره خيطان
سيد الفكر أنت أصل هوانا   إنما الفكر رائد الايمان
أنت فينا الامام والفكر دين   كل دين يرد فى الأديان
قصر الشعر والمقولة حبلى   بجميل الاشعار والأوزان
يا حبيب الفكر الحبيب إلينا   عشت للفكر شامخ البنيان

« رسـائـل تهنئـة »

نتقدم بصادق الشكر وكامل التقدير إلى كل الأصدقاء الذين توجهوا لنا برسائل تهنئة بمناسبة « العيد الفضى » لمجلة « الفكر »

ونعد الجميع بمواصلة المسيرة فى ثبات وتفتح

فهـــرس

العـدد 4 ـ جـانفـى 1981 السنـة السادسـة والعشـريـن

الفكر
مجلة ثقافية

مؤسسها ومديرها المسؤول
محمد مزالى
رئيس التحرير : البشير بن سلامة
تصدر بتونس شهريا
الادارة : 13 نهج دار الجلد ـ تونس
تلفون : 260.237
الحساب الجارى : 33769 ـ تونس
العنوان : ص. ب : 556 تونس 1025

- تصدر مجلة الفكر عشر مرات فى السنة وتحتجب فى شهرى اوت وسبتمبر
- قيمة الاشتراك السنوى :
  اشتراك عادى بتونس والبلاد العربية 5 دنانير
  اشتراك بالخارج 6،000 ستة دنانير
  اشتراك الانصار 10 دنانير
- الاشتراكات يرسل معلومها فى حوالة بريدية باسم المجلة او يصب فى حسابها الجارى : 337.69 ـ تونس
- الرسائل لا ترد نشرت ام لم تنشر
- المراسلات تكون جميعا باسم :
  مدير مجلة « الفكر »
  صندوق البريد عدد 556 ـ تونس

EL-FIKR-revue mensuelle culturelle 26 Année N° 4 Janvier 1981

طبع الشركة التونسية لفنون الرسم 20 نهج المنجى سليم تونس
تحت رقم 1246 / 80 ـ الايداع القانوني 4 / 80